



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل -



قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات الأجنبية

مذكرة بعنوان:

شعرية البداوة

في شعر الأمير عبد القادر

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي
تخصص: أدب حديث ومعاصر

إشراف الأستاذ:

- عمر بوفاس

إعداد الطالبتين:

- إلهام فقعاص

- زينب مريمش

أعضاء لجنة المناقشة:

- | | |
|--------------------|--------------------------|
| رئيسا | 1 - د.نوارى زروق |
| مشرفا ومقررا | 2 - أ. عمر بوفاس |
| ممتحنا | 3 - د. نور الدين سعيداني |

السنة الجامعية: 1440/1439 هـ
الموافق لـ/ 2019/2018 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

للّٰه الفضل من قبل ومن بعد فالحمد والشكر للمولى عز وجل
الذي أنار لنا دروب العلم وأماننا على إتمام بحثنا هذا
واعترافنا بالفضل لأهله وامثالنا لقول رسول الله " صلى الله عليه وسلم":
"من لم يشكر الناس لم يشكر الله"

وقوله تعالى:

"لئن شكرتم لأزيدنكم" سورة الرعد الآية (07)

وعلى هذا نتقدم بخالص الشكر إلى الأستاذ المشرف " عمر بوفاس " على
مجهوداته التي بذلها معنا لإنجاز هذا البحث وعلى نصائحه الطيبة ونسأل
الله أن يجزيه عنا خيرا وأن يجعله ذخرا لأهل العلم والمعرفة

كما لا يفوتنا أن نشكر كل من ساعدنا وكل
من مد لنا يد العون من قريب أو من بعيد
في إنجاز هذا العمل كما نوجه تحية مفادها الأخوة إلى

كل الزملاء والزميلات

وشكرا

مقدمة

يعد العرب أكثر الأقوام اهتماما وافتخارا بأنسابهم وأصولهم، فقد حفل التاريخ العربي بشواهد كثيرة تظهر اعتزاز العرب بأنسابهم، ولأن العرب القدامى كانوا أبناء بادية، ولأن الشعر كان ذاكرة العربي وديوانه لعصور طوال حفل الشعر العربي بشواهد كثيرة تمجد البوادي وتفتخر بالحياة في البادية، وهذا ما لمسناه فيما وصلنا من أشعار العربي منذ الجاهلية، فنجد الشاعر العربي يتغنى بالصحراء وموجوداتها حيواناتها ونباتاتها؛ وهو عند الشاعر القبلي كما عند الشاعر الصعلوك، وفي صدر الإسلام كما في العصر الأموي بل تجلى ذلك في فترة الازدهار الحضاري كما عند "البحري" بل هي أقوى عند "المتنبي" في قصيدة "من الجآدر" ، إن ارتباط العربي بأصله وجذوره البدوية هو ما يفسر لنا عدم انبهاره بالحضارة ومغرياتها، فضل وفيها لهذه البيئة البدوية البسيطة القاسية.

لعل قضية الدفاع عن الأصل أو النسب أو القبيلة هي وليدة البيئة البدوية التي طبعت أبنائها بمخصال وطبائع مميزة، إن هذه الميزة تسري في دم كل بدوي لا تغريه مخلفات الحضارة فالشاعر البدوي الجاهلي هو نفسه البدوي الأموي أو الإسلامي وحتى الحديث.

ولعل أبرز شخصية جزائرية حديثة تتبادر إلى الذهن عندما نذكر هذا التفاضل القديم الجديد بين البادية والحضارة هي شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، الذي يعتبر من الشخصيات الفذة التي دافعت عن البيئة البدوية، ولعل شعوره الزائد بالانتماء لهذه الحضارة وفخره بأصالته منبته كان الدافع الرئيسي في تجلي مظاهر البداوة في الكثير من أشعاره، فجنده خصص قصيدة كاملة للرد على الفرنسيين حينما استفزوه بأفضلية الحضارة على البادية، باعتبارهم يمثلون الحضارة في حين يمثل المجتمع الجزائري البادية فاحتكموا إليه ليفصل في هذا الجدل فأجابهم بقصيدة أسكتت كل الألسنة.

وإنه من هذه الزاوية هو موضوع دراستنا الموسومة بعنوان شعرية البداوة في شعر الأمير عبد القادر، وقد حملتنا الرغبة في الاطلاع بالموضوع من يقيننا بأهميته ورغبتنا في الاطلاع على هذا الجانب من شعر الأمير والبحث فيه، وكذا إعجابنا بشخصية الأمير وفضولنا في التعرف على كل الخلفيات المرتبطة بموضوعنا الرئيسي ولعل السبب

الرئيسي في تناولنا لهذا الموضوع بدراسة هو اعتزازنا بأصالة منبتنا وانتمائنا للحضارة البدوية العريقة... ولتعرف أكثر على هذا الجانب في شعر الأمير قمنا بطرح عدة تساؤلات: ما مدى فعالية البداوة في شعر الأمير؟ وإلى أي حد أسهمت في تحقيق شعرته؟.

ولإلمام بموضوعنا هذا والإجابة على هذه التساؤلات اعتمدنا على خطة بحث تتكون من فصلين مع مقدمة وخاتمة طبعاً، في المقدمة بينا أهمية الموضوع المتناول بينما كان الفصل الأول تحت عنوان البداوة بين المصطلح والممارسة، قسمناه إلى عنصرين الأول جاء لضبط المفاهيم تناولنا فيه مفهوم الشعرية ومفهوم البداوة في اللغة والاصطلاح، أما العنصر الثاني ف جاء تنمة للعنصر الأول وتضمن: من البداوة إلى الحضارة والبداوة والوعي الاجتماعي والأمير عبد القادر والبيئة البدوية ، أما الفصل الثاني المعنون بشعرية استحضر البادية في شعر الأمير عبد القادر فجعلناه هو الآخر في عنصرين، جاء الأول تحت عنوان الأمير عبد القادر وتجربته الشعرية، تناولنا فيه مولد الأمير ونشأته والجانب الأدبي عند الأمير عبد القادر، وبالعودة فقد كان مخصصاً للحديث عن شعرية البداوة وحضورها في شعر الأمير وقد خصصنا العنصر الثاني منه للتطرق إلى شعرية البناء الفني في شعر الأمير في حين وقفنا عند شعرية الأمير في تصوير البادية، وأخيراً كانت الخاتمة عبارة عن حوصلة لما قدمناه في دراستنا لهذا الموضوع، لتأتي بعد ذلك قائمة المصادر والمراجع الذي كان من ضمنها: ديوان الشاعر والأمير عبد القادر متصوفاً وشاعراً لفؤاد صالح السيد والأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث لمحمد بشير بويجيرة ومراجع أخرى قيمة وملائمة لموضوع البحث .

وقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي؛ هذا لأننا ندرك أنه أنسب المناهج مع موضوعنا، فطبيعة الموضوع هي التي تحدد المنهج مع الواجب إتباعه قصد الإحاطة بأهم جوانبه وتشخيص ظاهرة البحث بغرض فهم الإطار النظري واستقصاء الظاهرة في أشعار الأمير تم تحليلها.

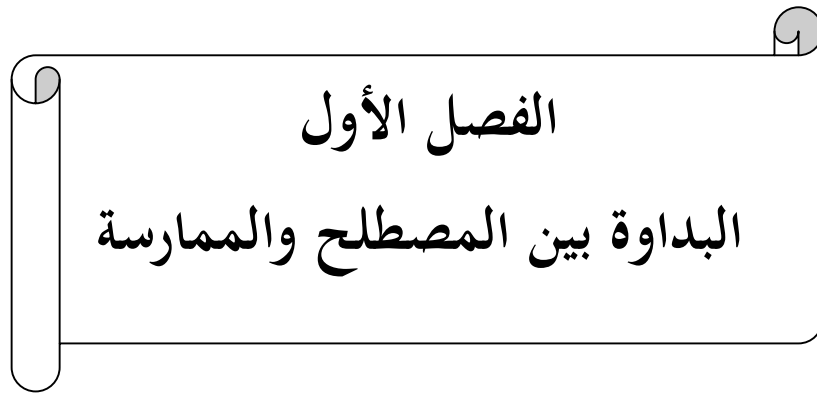
وأثناء محاولتنا الإمام بموضوع هذا البحث واجهتنا بعض الصعوبات كضيق الوقت ونقص في المراجع المرتبطة بالموضوع خاصة الجانب التطبيقي.

وبتوفيق من الله وتوجيه من الأستاذ الفاضل حاولنا الإمام بالموضوع قدر المستطاع.

وفي الختام نتقدم بأسمى معاني التقدير والاحترام وجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذ "عمر بوفاس" على إرشاده وتوجيهه الدائم لنا، وذلك برسمه طريقاً قويمًا ساعدنا على إنجاز هذا البحث .

كما نتقدم بالشكر والامتنان لكل من أفادنا ولو بمعلومة صغيرة في إتمام هذا البحث.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الفصل الأول
البداءة بين المصطلح والممارسة

I: ضبط المفاهيم

أولاً: مفهوم الشعرية

الشعر أسمى أشكال التعبير عن الأفكار وإخراجها في نسق جميل تستسيغه الأذان وتطرب له النفس، فالمعاني والألفاظ مطروحة في الطريق ولكن إخراجها عبر الشعر يستدعي قناة تربط بينهما فتضفي على الكلام حسناً ورونقاً يطلق عليه الشعرية ويمكن تعريفها كما يلي:

1- لغة:

الشعرية لغة مشتقة من كلمة "شعر" وقد أضيف إليها اللاحقة "ية" لإضفاء الصفة العلمية، تماماً كما لو يقال: علم الشعر وذلك جريانا على نحو الأسلوبية، والألسنية والأدبية⁽¹⁾ ومقابلته في اللغة الأجنبية poétique.

2- الشعرية اصطلاحاً:

الشعرية من المصطلحات الأدبية المعاصرة التي ارتبطت بالشعر عرفها سعيد علوش بقوله: «مصطلح الشعرية يستعمله تودوروف، كشيء مرادف لـ "علم" ونظرية الأدب والشعرية هي درس يتكفل باكتشاف الملكة الفردية التي تصنع فردية الحدث الأدبي أي الأدبية عند ميشونيك أما (ج. كوهن)، فيكتفي بتحديد المعنى التقليدي لـ الشعرية كعلم موضوعه الشعر وتعرف الشعرية كنظرية عامة للأعمال الأدبية»⁽²⁾.

والملاحظ من هذه التعريفات أن الشعرية ارتبطت بالشعر وكيفية إخراجها والشعرية تعتمد بالأساس على قائل الشعر أو الشاعر ونابعة من خياله وتبرز مدى تمكنه من البوح الشعري ليصل إلى المتلقي أو السامع بأسهل طريقة وأجمل وقع على الفكر أو الوجدان «وليس العمل الأدبي في حد ذاته هو موضوع الشعرية فما تستنتقه هو خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي وكل عمل عندئذ لا يعتبر إلاّ تجلياً لبنية محدّدة وعامة ليس العمل إلاّ إنجازاً من إنجازاتها الممكنة، ولكل ذلك فإن هذا العمل لا يعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب

(1) - ينظر: رابح بوحوش: الشعرية وتحليل الخطاب، الموقف الأدبي، العدد 414، أكتوبر 2005، دمشق، ص39.

(2) - سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ / 1985م، ص127.

الممكن وبعبارة أخرى يعنى بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي أي الأدبنة»⁽¹⁾ ويقصد بالأدبنة مدى أدبية الأدب أو بالأحرى مدى شاعرية الشعر الذي يعكس قدرة الشاعر على إخراج عمل أدبي نصفه بالشاعرية وكلما زاد عنصر الشاعرية كلما كان الخطاب الأدبي أحسن وأرقى وأجود.

ولذا فقد وصفت الشعرية في المدونة النقدية بأنها «انتهاك» أو «خرق» سنن الكلام العادي وأنها "عنف منظم" يمارس ضد الكلام العادي، وكذا فقد وصفت بأنها "تجاوز" أو "انحراف" أو "إنزياح" عند سنن الخطاب العادي...، وهو إنزياح أو انتهاك ينجم عنه انتقال اللّغة أو تحويلها من كونها محاكاة مرأوية، أو شبيهة بها، للعالم الخارجي إلى أن تكون هي نفسها عالما بديلا لذلك العالم. أما أثر هذا الانتقال وفعله فإنه يماثل أثر السحر وفعله وهل السحر إلاّ خرق للواقع وتحويله إلى واقع مخالف؟ وكذا فإن أثر هذا التحول وفعله يشاكل أثر التخيل وفعله»⁽²⁾ ويقصد بالتخيل استشعار الخيال إثر تلقي الخطاب الأدبي وانعكاسه في النفس بالدهشة والتعجب والانبهار وهنا إشارة إلى أثره في النفس وفي الوقت ذاته إلى طبيعة الخطاب الأدبي.

ثانيا: مفهوم البداوة:

1- لغة:

يختلف مدلول لفظة بداوة حسب ما تدلي به متعلقات الجذر اللغوي (بدو) في المعاجم اللغوية العربية، إذ نجد تضاربا في العودة إلى أصل مادتها الأساسية، فتارة ترد إلى مادة بدا، وتارة أخرى إلى مادة بدو، ويخرج عنهما مشتقات ترتبط فيما بينها في المعنى لتحيلنا إلى مصطلح البداوة، وقبل هذا وذاك وجب عرض هذه المدلولات المختلفة والإشارة إلى حقيقتها كما وردت في المعاجم العربية:

(1) - تزيّفان تودوروف: الشعرية، تر: شكري المبحوث ورجاء بن سلامة، دار تويقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص23.

(2) - قاسم المومني: شعرية الشعر، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، 2002م، ص7.

ورد معنى لفظة بدا في لسان العرب بمعنى أول الشيء وأصله، والأسبق زماناً: «الْبَدِيُّ بِالْتَشْدِيدِ: الأول ومنه قولهم: إفْعَلْ هذا بَادِي بَدِيٍّ أَيَّ أَوْلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَدَيْتُ بِالشَّيْءِ وَبَدَيْتُ: ابتدأت وهي لغة الأنصار، قال ابن رواحة:

بِاسْمِ الإِلهِ وَبِهِ بَدِينَا

وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَعِينَا

وَحَبَّبَا رَبًّا وَحُبَّ دِينَا

قال ابن بري: قال ابن خالوية ليس أحد يقول بديت بمعنى بدأت إلا الأنصار والناس كلهم بدتت وبدأت لما خفت الهمزة كسرت الدال فانقلبت الهمزة باء، وأهل المدينة يقولون بدينا بمعنى بدأنا»⁽¹⁾

فأهل البادية لهم لكنة خاصة في نطق الكلمات تختلف عن أهل الحضر، والأكيد أن اللسان البدوي هو الأصح وهذا لا يعني أن أصل الحضر على خطأ.

ويخرج عن مادة (بدا) مشتقات كثيرة، كان قد أشار إليها ابن منظور بقوله: «وَالْبَدُوُّ وَالْبَادِيَّةُ وَالْبَدَاوَةُ. وَالْبَدَاوَةُ: خلاف الحَضْر، والنسب إليه بَدَوِيٌّ، وَبَدَا القوم بَدَوْاً أي خرجوا إلى باديتهم، وقيل للبادية بادية لبروزها وظهورها وقيل للبرية بادية لأنها ظاهرة بارزة (...). والبادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل: قد بَدَوْا، والاسم البدو (...). وفي الحديث: من بدا جفا، أي من تنزل البادية صار فيه جفاء الأعراب».⁽²⁾

وجاءت في قاموس المحيط البداوة بمعنى: «البداوة البادية والإقامة بالبادية هي خلاف الحضارة والنسبة إليها بَدَاوِيٌّ وَبَدَوِيٌّ ج بَدَاوَتْ، وبداوة الأمر أول ما يبدو منه، البَدُوُّ البادية خلاف الحضر، ولغة في البدء والنسبة إليه

⁽¹⁾ - ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار صادر، القاهرة، مصر، د ط، 1119هـ، مادة (بدا)، ص 235.

⁽²⁾ - المرجع نفسه، ص 235.

بَدَاوِيٌّ، البَدَاوَةُ جانب الوادي وهما البدوتان المَبْدَى خلاف المتحضر والمَبْدَى المظهر وخلاف المعيد واصله
الهمز». (1)

كما وردت لفظة بداوة بذات المعنى في المعجم الوسيط فهي أول الشيء وأصلها «مادة (بَدَا) - بُدُوًا
وبَدَاءً: ظهر، وله في الأمر كذا: ويقال: فعل كذا ثم بداله وفي المثل: «ما عدا مما بدا»، ويقال: بدا إلى البادية وأقام
بالبادية فهو بادٍ ج بُدَاء. وتبادى تشبه بأهل البادية أما البادي المقيم في البادية وفي التنزيل العزيز: ﴿بَادُونَ فِي
الْأَعْرَابِ﴾. والبادية: مؤنث البادى وهي فضاء واسع فيه المراعي والماء وأهل البادية بوادٍ، والبداوة الحياة في البادية
ويغلب عليها التنقل والترحال». (2)

ولا يختلف مدلول لفظة بداوة فيما ذكرناه، وما ورد في مختار الصحاح، انطلاقاً من مادة اللفظة إلى
مختلف المعاني التي يميلنا إليها: «بدا الأمر من باب سماى ظهر وقرئ الذين هم اراذلنا بادى الرأي أي في ظاهر
الرأي ومن همزه جعله من بدأت ومعناه أول الرأي». (3)

أي أنه مرتبط دائماً بالسبق وظاهر الشيء من أوله «وبدو القوم خرجوا إلى باديتهم والبدو البادية والنسبة
إليه بدوي، والبداوة بفتح الباء وكسرهما والإقامة في البادية وهو ضد الحضارة وتبدى الرجل أقام بالبادية وتبادى
تشبه بأهل البادية». (4)

أما "أبو منصور الأزهري" في قاموسه تهذيب اللغة فقد تناول مفهوم مادة بدا بنفس أسلوب "ابن منظور"
في لسان العرب و"الفيروز آبادي" في القاموس المحيط، فأخذ المبني والمعنى نفسه وأضاف إليه القليل « قال الليث:
بدا الشيء يبدو بدوا إذا ظهر وبدا له في هذا الأمر بَدَاه (...) البادية خلاف الحضارة والحاضرة القوم الذين

(1) - الفيروز آبادي، مجد الدين محمد: القاموس المحيط: تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005، مادة (بدا)، ص32.

(2) - شعبان عبد العاطي عطية: المعجم الوسيط، مكتبة الشؤون الدولية، د ب، ط4، 1425هـ/2004م، مادة (بدا)، ص44.

(3) - الرازي، أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، مطبعة الكلية، مصر، ط1، 1329هـ، ص573.

(4) - المرجع نفسه، ص574.

يحضرون المياه وينزلون عليها في حمراء القيظ فإذا بردا الزمان ظَعَنُوا عن أَعْدَادِ المياه، وبدوا طلبا للقرب من الكلا فاقوم حينئذ بادية، بعدما كانوا حاضرة»⁽¹⁾.

من خلال هذا التتبع لمفهوم لفظة بداوة تبين لنا أن هذه المعاني والدلالات مرتبطة فيما بينها انطلاقاً من الأصل المشترك المتمثل في مادة اللفظة (بدا) والتي تحيلنا إلى أول الشيء وأصله، أي أنها ترتبط بالسبق الزمني والطور الأول لنشأة، فالبادية ترتبط ببداية الحياة وظهورها الأول.

2- اصطلاحاً:

لطالما كانت ظاهرة البداوة تحضى بأكبر قدر من الفضول والإهتمام من قبل الدارسين، وهذا ما أحدث خلاف بينهم في تحديد مفهوم جامع للبداوة باعتبارها دلالة اجتماعية متشعبة فالبداوة سلوك وثقافة ونمط حياة ولعل أهم ما اتفق حوله الدارسون هو أن البداوة ظاهرة عريقة؛ تعبر عن أصالة المجتمع العربي على امتداد العصور الغابرة، وإلى يومنا هذا وبعضهم ربط مفهوم البداوة بأهل الصحراء أما غيرهم فلم يحدد لهم مكاناً ولا موطناً، ولكي تتضح الصورة أكثر استعنا بعدد من التعريفات المختلفة المبنى المشتركة المعنى في أجزاء كثيرة منها ومختلفة في أمور بسيطة كموطن أهلها مثلاً.

- تحديد المفهوم حسب البيئة:

هناك أصوات عديدة تنفي ربط البيئة البدوية بالصحراء وسلطتها عليها يقول "مصطفى الضبع": «ليست البداوة قرينة الصحراء كما تعمدا أن نفهم، وليس الحديث عنها دعوة للتخلص من كل ما هو ماض فلسنا ضد قيم ومبادئ على المجتمع أن يحافظ عليها بوصفها ثوابته رغم أن منظومة القيم في حد ذاتها في حاجة إلى مراجعة

⁽¹⁾ - الأزهرى، أبي منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، ج14، تحقيق: يعقوب عبد النبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، د ط، د س، صص 202، 203.

من زاوية أخطر قد تؤدي بها (...) يكون المجتمع بدويا حين يصر على الإبقاء على أعرافه وتقاليد البائدة دون مراجعة وفحص وحين لا يسمح بمراجعة نفسه»⁽¹⁾.

وفي الجهة المقابلة نجد رأياً مخالفاً لرأي السابق، فحسبهم كل صحراء بادية ولا بادية بلا صحراء: «البدو جماعات تسكن الصحراء وترتبط بأصول سلالية واحدة، بصرف النظر عما إذا كانت مستقرة أو متجولة»⁽²⁾. وهنا نجد ربطاً واضحاً للبيئة البدوية بالصحراء، ولكن مالا يجب إهماله هو «أن البداوة لا تعني أبداً التجول لغير هدف عبر الصحاري بل تمثل أقصى نوع من التوافق والتكيف للحياة البشرية مع الطبيعة القاسية»⁽³⁾.

والملاحظ بأن التعريفات السابقة تشترك في وصف الحياة البدوية والتي نجد بأنها تميل إلى المجتمعات الصحراوية وإن لم ترتبط بها ارتباطاً كلياً إلى أنها تشترك في ربط البدوي بالطبيعة وهذا ما نجده واضحاً جلياً عند ابن خلدون حينما عرف البدو على أنهم «المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقصرون على الضروري في الأقوات والملابس والمسكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي»⁽⁴⁾.

والبداوة في تعريف آخر هي «أول نمط اجتماعي للحياة، عاشه الإنسان لأنها بداية سعيه الحقيقي للتكيف مع الظروف الصعبة والقاهرة التي أحاطت به، وارتكز هذا التكيف على عادات وقيم ونظم مكنت ذلك

(1) - مصطفى الضبيح: بداوة المرأة في الرواية العربية، مدينة الواحات، القاهرة، 15-17 مايو 2007م، ص3.

(2) - عطا الله النوعي: القيم البدوية بين الثبات والتغير -دراسة ميدانية على عينة من شباب مدينة قصر الحيران-، رسالة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: محمد بوخلوف، جامعة الجزائر، 2007م/2008م، ص59.

(3) - صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، دار غريب، القاهرة، مصر، د ط، 2002م، ص336.

(4) - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، ج1، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، د ب، ط1، 2004م، ص245.

البدوي من أن يحافظ في النهاية على حياته وحياة حيواناته في إطار من العزلة شبه التامة والاستسلام القديري لما تجود به الطبيعة من خير وشر»⁽¹⁾.

- تحديد المفهوم بحسب التنقل والترحال:

لقد ارتبط مفهوم البداوة-كثيرا- بالتنقل والترحال حتى غدا سمة أهل البادية، يقول محي الدين صابر: «فالبداوة هي نمط الحياة القائم على التنقل والترحال الدائم للإنسان في طلب الرزق أو حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار عندها أو حولها، على كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها من ناحية وعلى كافة الوسائل الفنية المستعملة في استغلالها من ناحية أخرى»⁽²⁾.

إن المحفز الطبيعي وانفتاح البدو على مختلف البيئات كانا عاملين أساسيين في التنقل الدائم للبدو في مختلف الأقطار رغم قساوة الطبيعة بدرجة أولى، وقلة وسائل الترحال بدرجة أقل وهذا ما يظهر لنا في دراسات الباحثين «إن البحث في خصائص المجتمعات الصحراوية يقودنا إلى الوقوف على كثير من الحقائق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتاريخية والحديثة، إن ما يدعو إلى الترحال والتنقل هو من جهة المحفز الطبيعي ومن جهة أخرى غريزة التحرر التي يسعى البدوي لتحقيقها»⁽³⁾.

ولعل مختلف الظروف التي يعيشها الإنسان البدوي هي التي جعلته ملزما على التنقل والترحال في أرض الله في محاولة منه لتكيف مع ما تتطلبه منه مقتضيات الحياة وهذا ما لخصه لنا بعض المهتمين بدراسة البيئة البدوية «البداوة تعني الترحال وعدم الاستقرار في مكان ثابت طوال العام إذ تضطر بعض الجماعات أو العشائر إلى أن تغير مناطق إقامتها من آن لآخر أو من فصل لآخر سعياً وراء مصادر الغذاء أو القوت أو أبواب الرزق

⁽¹⁾ - عطا الله النوعي، القيم البدوية بين الثبات والتغير، ص58.

⁽²⁾ - صلاح الفوال: علم الاجتماع البدوي، ص336.

⁽³⁾ - مرقومة منصور: المدينة الصحراوية في الجزائر، من نسق البداوة إلى ضرورة الاستقرار، جامعة مستغانم، 2015/11/30، ص3.

المختلفة». (1) أي أن ترحالهم لم يكن لهواً أو رغبة في اكتشاف القفار والبراري وإنما كانوا يتبعون مصادر الرزق والحياة أينما كانت.

ونجد بأن البيئة البدوية ساعدت في تشكيل طبائع مميزة لأصل البادية، وحسب بعض الدارسين البدو «فئة من السكان الذين يتميزون بخصائص معينة وسلوك خاص تتحدد ملامحه إلى حد كبير من خلال البيئة المحيطة بهم ولا تسمح - تلك البيئة - بإقامة حياة سكانية مستقرة». (2)

ونجد أهل البادية محافظين لا يميلون إلى التجديد أو التغيير بل إنهم نمطيون إلى أبعد حد «أما من حيث قابلية تغيير هذا النوع من التجمعات؛ فإنه يميل إلى رفض كل ما هو جديد والتمسك بالنماذج الموروثة بحيث ينظر أفرادها إلى أي تغيير كعمل شاذ ويشكل انتهاك لأشكال التقليدي وعلى هذا الأساس فإن المجتمع البدوي مجتمع تقليدي». (3)

من خلال تتبعنا لفظة بداءة في اللغة والإصطلاح خلصنا إلى وجود تقارب وترايط في تحديد المفهوم والدلالات التي تحملها هاته اللفظة، إنطلاقاً من ارتباطها بالسبق الزمني والظهور الأول في اللغة، أما البداءة في الإصطلاح فقد كانت أشمل وأعم من أن ترتبط بالسبق الزمني فقط، بل إنها إشتربت ضوابط إرتبطت بها كالبينة البدوية القائمة في الطبيعة هذه الطبيعة الصحراوية القاسية الصعبة. كما إرتبط مفهوم البداءة - كثيراً - في التنقل والترحال الدائم وهو السمة الغالبة على حياة البادية على خلاف أهل الحضر، فالبداءة نقيض الحضارة من كل الجوانب فهي إذن نمط حياة تولده لنا الطبيعة القاسية في سلوك البدوي وثقافته وتراحاله الدائم، فهو لا يرتبط بسكن ثابت أي أنه ابن الصحراء أينما كانت وحيثما وجد متطلبات حياته.

(1) - صلاح الفوال: علم الاجتماع البدوي، ص 336.

(2) - المرجع نفسه، ص 336.

(3) - عطا الله النوعي: القيم البدوية بين الثبات والتغير، ص 57.

II: البداءة بين الثقافة والحضارة

أولاً: من البداءة إلى الحضارة

أينما نتوجه يظهر لنا الصراع بين البداءة والحضارة، ويفرض كل منهما تعاكساً في القيم الاجتماعية والهدف الذي تسعى إليه الحضارة يختلف عما تهدف إليه البداءة، فالبداءة تتعامل مع كل ما هو طبيعي لم تطله يد الإنسان بتغيير، أما الحضارة فترمز إلى كل ما أبدعه الإنسان مع نمط حياته القائم على الرفاهية في كل نواحي الحياة إلا أن كل قطب منهما له ميزات خاصة فيمكن تفسير هذا الاختلاف بتقسيم هذه المعادلة إلى مفاهيم محددة الصراع بين البدو والحضر هو نتيجة للتناقض.

- من حيث الدلالة:

الحضارة هي الزينة المحتلّة والجمال المصطنع فهي أسلوب مريح للمعاشر فالحضارة هي الكون في الحضر والبداءة هي الكون في البدو فحسّ الحضارة متكلف ومجلوب بالاحتتيال، أما حسّ الحضارة متغير وغير ثابت أما محاسن الطبيعة أشهى للنفس من التحمّل لأن الطبيعة بمظاهرها مستمرة ولكن الحضارة متغيرة باستمرار فالتحضر هو جملة للصفات المكتسبة خارج الطبيعي⁽¹⁾ ومن الملاحظ أن ربط البداءة والحضارة بالطبيعة راجع إلى اختلاف معالم البيئة الطبيعية، «لأن حياة الناس في المدينة لا تحكمهم عوامل طبيعية ومظاهرها مثل الشمس والجبال والوديان والسهول وذلك لأن الأفق يكون محدوداً بالمنازل والمباني الشاهقة كما أن خطوط المواصلات المتقدمة تسهل عملية التنقل وبذلك نجد أن الإنسان في الحضر أدخل تعديلات جوهرية في المدينة وأثر على البيئة الطبيعية». (2)

(1) - ينظر: محمد عمر أبو ضيف محمد: البداءة والحضارة عند المتنبي، مجلة كلية الأدب، جامعة سوهاج، د ب، العدد 25، 2013م، ص84.

(2) - عطّا الله النّوعي: القيم البدوية بين الثبات والتغيير، ص88.

كما يذهب المؤرخون إلى ربط البدو بالبادية وحياة الترحال والانتجاع واللا استقرار في مكان بعينه مثلما «فلما ربطت البادية ب حياة الترحال والمدينة بالجانب المعماري المدني وجعل البادية مؤشراً طرفياً دالاً على الترتيب التراتب العمراني، والمدينة أو الحاضرة جعلها منتها الترتيب ورأسه وأطلقها على كافة المجتمعات»⁽¹⁾.

وفي هذا إلغاء للدور الذي لعبته المجتمعات المتأخرة من الناحية المعمارية في نشوء حضارات أخرى عقبها زمنياً. فالبدواة ترتبط بجبلّة أفرادها فلا يعكرها أي شيء ولا تخضع لسلطان إلى انتمائها القبلي في غالب الأحيان.

أما الحضارة فتخضع للتعاملات الاجتماعية المبنية على قيم تترك ليونة في التعامل وتبرز فيها ثقافة (المهنة والخدمة) فيبدأ الفرد في تسخير ذاته بأنواع الحرف لخدمة الآخر وبالتالي كسب رزقه.

أما البدوي فيأبى أن يمتحن حرفة معينة ويعتبرها مهانة له بل يركب حصانه ويسعى في الصحاري لكسب قوته كي لا يشعر بالتبعية لأي شخص أعلى منه درجة فيشعره بالمهانة وينقص من انتماءه للبادية.

- من حيث البيئة المعيشية:

تختلف البيئة المعيشية للبدو عن البيئة المعيشية لسكان المدينة مما يؤثر بشكل مباشر على كلا منهما « فالبدواة جعلت جبالها ومرتفعاتها وبيئتها الجغرافية الوعرة واعتبارها وسيلة للدفاع عن النفس اتجاه أي اعتداء، فالبدوي يحب الفضاءات الواسعة والانفتاح على الطبيعة أما الانحصار في المدينة فيشير إلى نفسية منغلقة وكلما كان أمتن إطمئن الإنسان الحضري أكثر»⁽²⁾.

في المدينة يخضع الإنسان لقيود المجتمع ويلتزم بها مما يجعل منه دائم الارتباط بالدولة أو السلطة أما البيئة التي يسكنها البدوي فتجعله دوماً يشعر بالحرية التامة «فوطأت القيود المدنية على الفرد المدني أوجبت عليه أن يتعامل مع الآخرين بصيرورة دائمة، الأمر الذي يجعله يتنازل عن هامش من إرادته مقابل حفظ صلته بالمجتمع»⁽³⁾.

⁽¹⁾ - سليمان عشراقي: الشخصية الجزائرية - الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 2009م، ص 267.

⁽²⁾ - المرجع نفسه، ص 261.

⁽³⁾ - المرجع نفسه، ص 259.

أما البدوي في آفاق البادية الواسع يجعله يشعر بالانفتاح مما ينعكس عليه بالانطلاق الروحي والعاطفي مما يزيده تعلقًا ببيئته ويقوى رابطته بالمكان.

أما أهل الحضر فتلك «البيئة المغلقة وواقع الانحسار الذي تعيشه الفئات المدنية خلف الأسوار والذي ينعكس على نفسية الأجيال، مما يورثها إحساس الانغلاق والميل إلى العزلة وقابلية اكتئاب وخلق النقشف»⁽¹⁾.

- من حيث الأخلاق:

الاختلاف بين الحضارة والبداءة من حيث المفاهيم والبيئة ينعكس بالضرورة على أخلاقهم وقيمهم التي يتحلون بها «فكثيرا مما تعتبره الذهنية البدوية استهائًا لا يقابل إلا برفع السيف، قد تكيف معه الذهنية المدنية وتحملته ولا ترى فيه فضاضة، وذلك لتعودها على بناء علاقات التعامل والتنازل والتغاضي والبراغماتية»⁽²⁾.

فالحضارة تؤثر بشكل مباشر في تكوين ذهنية الإنسان الحضري أن الحضارة تبعد عن أهلها الخشونة وتذهب الخصال، فيركنون إلى الدعة ويألفون الاستقرار والراحة ويعترفون من النعيم ويعرفون الرفاهية ووسائل الحضارة فتتبدل عوائدهم وطبائعهم⁽³⁾.

وهذا يرجع بالأساس إلى الفطرة فكل ما ينتج عنه من سلوكيات يكون نتيجة الاكتساب ومن هذا المنطلق أكد "ابن خلدون" أن «أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر لأن البدو وبحكم طبيعة عيشهم وتأهبهم للدفاع عن أنفسهم ترقبا لأي خطر يعترضهم في الصحراء أو البادية، أما الحضر فيحتمون دومًا بالدولة أو السلطة ويقومون بين أسوار وأبواب تحيطهم من كل جانب»⁽⁴⁾، فالشجاعة أصبحت عادة وجبلةً في البدو والتراجع والخوف عادة وجبلةً في الحضر «ورسوخ الثقافة القتالية أصبحت تمثل ميزة وسجية تعود إلى بداءة البداءة ونفورهم

(1) - عشراقي سليمان: الشخصية الجزائرية - الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية-، ص260.

(2) - المرجع نفسه، ص 260.

(3) - ينظر: صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، -التأصيل النظري-، ص32.

(4) - عبد الرحمان بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ج1، ص251.

عن الحاضرة أما انغماس في الحضارة يتولد عنه طبع اجتماعي يرقق الهمة وتغدو به الجماعة تجنح إلى السلم وأحياناً حتى على حساب الكرامة»⁽¹⁾.

إن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة والبيئة البدوية سبابة لفعل الخير لامتدادها الحضاري الراجع إلى ثقافة الإنسان العربي الذي لطالما اشتهر بالكرم عن أهل الحضرة، فأهل الحضرة غرقوا في الملذات والترف والإقبال على الدنيا وحب المال، وهذا ما أبعدهم عن الخير وطريقه فإنسان المدينة دائم البحث عن امتلاك ما هو أكثر مادي أما البدوي فبطبعه إنسان يكتفي بضروريات الحياة ولا يطمع إلى أكثر منها.

فالأمة التي تنعدم فيها الحضارة تكون أقرب إلى الأنفة والعنفوان وتتقوى بذلك نزعتها الثقافية التي تمجد الشجاعة والحمية والولاء للقبيلة والشدة والبأس «فصفة الأنفة صفة توحش أي بداءة، أو خلقاً دالاً على نقص مدينة الفرد أو الجماعة، فالأمة الأخذة بحظ من البداءة والتحرر من قيود المكان عبر المواسم أمة يغلب على طبعها خلق الأنفة، بخلاف الأمة الأالصق بالمدينة فتلك تتميز بالانبساط على التعامل وبقابلية الإحتمال والتكيف»⁽²⁾.

ثانياً: البداءة والوعي الاجتماعي

البداءة جزء من التراث العربي يختص به أهل البدو في نمط عيش محدد نتج عنه نظام اجتماعي وثقافي تجلّى في سلوكات وقيم بدوية تميز المجتمعات البدوية وتجعل من وجودها ممتداً عبر العصور وإن «كانت تبدو اليوم نمط خاصاً من أنماط الحياة الاجتماعية يمكن وصفه بالتخلف، إلا أنها كانت تمثل منذ القدم حضارة ما قبل التاريخ وجمهرة المؤرخين قد أجمعت على أن الإنسانية قد نشأت بين أحضان البداءة والإنسان بدأ حياته بدويًا وظلّ على بداءته وتحواله حتى استقر على شواطئ الأبحار بعد اكتشافه للزراعة، باعتبار أن الإنسان دائم البحث والتنقل طلباً للرزق»⁽³⁾.

⁽¹⁾ - عشراقي سليمان: الشخصية الجزائرية والمحددات الحضارة، ص 260.

⁽²⁾ - المرجع نفسه، ص 259.

⁽³⁾ - صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، ص 336.

أما البداءة بمعناها الحقيقي ليست مقتصرة على التحوال في الصحراء بل تعكس مدى تمكن البدوي من التأقلم مع هذا الفضاء بكل ما يحتويه وإنتاج خصوصياته وهويته التي تميزه عن الإنسان الحضري فالبداءة تشمل جانبين أساسيين في مراحل تطورها «أ- الجانب المادي: ويشمل ما يستخدمه الإنسان من أدوات وأجهزة وغيرها من عناصر البيئة الطبيعية التي تحيط به، ب- أما الجانب المعنوي غير المادي: فيتناول العادات والتقاليد والأعراف والقيم، علاوة على ذلك الأساليب التي تنظم سير الحياة الاجتماعية بأنظمتها المختلفة»⁽¹⁾ فالجانب المادي نجده مرتبطاً بنمط العيش، أما الجانب المعنوي فيتمثل في الثقافة والقيم.

1- البداءة كنمط حياة

أ- البيئة البدوية:

لقد نتجت البداءة عن تأثير الطبيعة القاسية في إطار بيئة بدوية «إن معطيات العلوم الطبيعية تشكل أساساً يسمح بالافتراض بأن ظهور البداءة ارتبط إلى حد كبير بتغيرات المحيط الطبيعي للعديد من المناطق السهلية الجبلية أو الصحراوية على حد سواء، والتذبذبات المناخية والجوفية أثرت على نمطهم المعيشي، وظهرت ضرورة وجود وسائل جديدة من الاقتصاد، ولهذا كان من الضروري الانتقال على أنماط جديدة»⁽²⁾.

سعى من هذا الإنسان إلى الاستقرار في أماكن تواجد المياه وأراضي صالحة للزراعة فالبدوي دائم الحساب لخصوصيات الوضع الطبيعي والتذبذبات المناخية في المناطق الصحراوية وعلى مشارف الهضاب.

ودراسة حياة البدو طالما ارتبطت بالصحراء الجافة والمناطق الوعرة التي يصعب الاستقرار بها استوطنها البدوي متحدياً بذلك قسوة الطبيعة هذه «البيئة هيمنت على مشاعر البدوي وتدخلت في تكوينها وصياغتها حسب ما

(1) - صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، ص337.

(2) - فيكتور شمريلمان: البدو الرحل عبر التاريخ، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط، 1427هـ/ 2007م، ص66.

تقتضيه، ودفعت به إلى حياة تنسجم مع ما تفرضه عليه فكان معها، فعاداته وقيمه مضبوغة على ما قدمته تلك البيئة ولذلك نراه منفردًا في بعض خصائصه عن القبائل الأخرى»⁽¹⁾.

فالبداوة كنمط حياة نتج عن تأثير الطبيعة وفرضها لنمط عيش نتجت عنه البداوة «فالبيئة تمارس نفوذًا لا حد له على المجتمعات البدوية فهي التي تحدد للبدوي نوع غذائه وكيفية حصوله عليه، وكذلك ملبسه ومشربه ومسكنه كما تحدد له حيواناته كمًا ونوعًا وحتى في لون بشرته ومدى قوته وضعفه وتحدد المزاج النفسي والاجتماعي أيضًا»⁽²⁾.

تتمثل البيئة البدوية في الصحاري في معظم تعريفاتها وارتبطت بها ارتباطًا وثيقًا «إذ لم تكن الصحراء مجالًا مغلقًا، فقد كانت تجوبها القوافل التجارية والقبائل الباحثة عن منتجات ومراعي ومواطن للترحال فعكس الحواضر والمدن التي كانت تسيحها الأسوار خوفًا من الهجومات كانت الصحراء مجالًا واسعًا مفتوحًا ولم تكن ساكنتها تسيح نفسها أو تستقر في مكان لمدة طويلة»⁽³⁾. فوجد البدوي ضالته في الصحراء الواسعة ليسعى دون قيود وتمارس ثقافة البدوية وأساليب عيشه البسيطة المتمثلة في الصيد وتربية المواشي والإبل.

فالذهنية العربية تعتبر الصحراء منبع للجمال رغم قساوتها إلا أنها ظلت مفخرة البدوي فهي تعلم الصبر من خلال صبر الجمال وكذلك مكارم الأخلاق حيث يقول "مفدى زكريا":

«ألا... ما هذا الحساب.. ومالي؟	**	وصحراؤنا نبع هذا الجمال
هنا مهبط الوحي للكائنا	**	ت، حيال النخيل وبين الرمال
تبادلنا الشمس إشعاعها	**	ويلهمنا الصقر نور الهلال
ونعدو فنسبق أحلامنا	**	ونهمزاً من وثبات الغزال

⁽¹⁾ - أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداوة وصورها في الشعر الجاهلي، رسالة مكملة للحصول على الدكتوراه، إشراف: خليل الرفوع، جامعة مؤتة، 2015م، ص 19.

⁽²⁾ - صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، ص 340.

⁽³⁾ - رحال بوبريك: التراث الصحراوي - التاريخ والذاكرة - المجلس الوطني لحقوق الإنسان، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2012م، ص 17.

وجنبنا الغدر ماء الغدير ** وحذرنا الظل نوح الضلال

وعودنا الصدق... راعي المواشي ** وعلمنا الصبر... الجمال»⁽¹⁾

ب- الترحال وعدم الاستقرار:

البدوي يسعى دوماً على فضاءات أوسع وأرحب لطلب الرزق فالبدوي يبتغي دوماً الحياة المتجددة وحب التغيير وعدم القوقع في مكان محدد فعدم الاستقرار ميزة البدوي الأصيل «فالمجتمع البدوي يقوم على التنقل الدائم سعياً منه في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة من ناحية وعلى كفاية الوسائل المستعملة واستغلالها من جهة أخرى»⁽²⁾، ولعل حياة التنقل والترحال عند البدو راجع إلى قسوة الطبيعة وضرورة البحث عن سبل عيش جديدة ودافع نفسي يختص به البدوي الذي يجب حياة الحرية وعدم القيود.

ف نجد ارتباطاً بين لفظة الرحل وحياة أهل البادية القائمة على الترحال «ترتبط كلمة الرحل بالأصل الإغريقي nemo أي توزيع أو تقسيم جزء من المرعى لقطيع من الماشية أو Nomas أي أرعى وبذلك فالسلوك الترحالي يعبر بالأساس عن نمط للعيش لا عن إثنيات وشعوب فتصبح البداوة عبارة عن نمط في الحياة قائم على التنقل الدائم للإنسان حول مراكز معينة»⁽³⁾ ومن خلال هذا يتجلى ارتباط حياة التنقل والترحال بتربية الماشية والإبل خاصة مما يبرز علاقة البدوي بالحيوان فالبدوي لا يكف عن التنقل والترحال ولا يستطيع البقاء في مكان واحد مدة طويلة، وهذا لا يعني أنه يستغني عن الأماكن التي تتوفر على الماء والكأ وتضمن له عيشة إلا أنّ التنقل عنده أصبح يعتبره عزّة ومفخرة يتباهى بها.

⁽¹⁾ - مفدى زكريا: إلبادة الجزائر، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 1995م، ص35.

⁽²⁾ - لغريبي نسيمة: حالة البدو والمهاجرين إلى مدينة توقرت، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، دون نشر، الجزائر، العدد 17، 2014م، ص27.

⁽³⁾ - رحال بوبريك: التراث الصحراوي التاريخ والذاكرة، ص53.

ج- البساطة: نقصد بالبساطة السهولة وعدم التعقيد فهي ميزة الإنسان البدوي سواء في مسكنه لباسه أو نمط حياته وهي ناتجة عن الترحال الدائم للبدو عبر الصحراء «فتحتم حياة التنقل أو الترحال الدائم أن تكون الجماعة البدوية خفيفة الحركة حتى تستطيع أن تواجه كافة الظروف الصعبة والمتغيرة التي تقابلها، وخفة الحركة هذه تستدعي أن تكون الجماعة البدوية بسيطة في سكنها ومتاعها ومعداتها».⁽¹⁾

والزيادة عن ضروريات الحياة اعتبره "ابن خلدون" يدخل في خانة الكماليات عند البدو ولا يطعمون في امتلاكه، فهمهم الوحيد الإكتفاء الذاتي ليس من طبعهم حب التملك مثل الحضرة فالطبيعة البدوية تتميز بالمرونة والتأقلم وبساطة العيش في الأسلوب أو الوسائل، فالترحال هو سمة المجتمعات البدوية لا يوجد فيها تقسيم الأعمال والنظم ونتيجة لهذا تظهر البساطة وعدم التعقيد عند البدوي «فالمجتمعات البدوية مجتمعات تقليدية تعتمد على مجموعة من النظم والعلاقات المتشابهة يقل فيها التخصص إلى أدنى درجة ممكنة عكس المجتمعات الحديثة وبالتالي فالمجتمع البدوي هو ذلك المجتمع الذي يضم جماعات تحيا حياة تقليدية تتميز بالبساطة وعدم التعقيد»⁽²⁾، إلا أن هذه المجتمعات يبرز تنظيمها وقدرتها على التأقلم في إنشاء قبائل وعشائر في شكل تجمعات تجمع بينها علاقات إجتماعية وثقافية مختلفة.

د- التجمع القبلي:

تنوزع المجتمعات البدوية في تنظيمات معينة يطلق عليها اسم القبيلة «والنظام القبلي في شبه الجزيرة العربية ضرورة إجتماعية فرضتها ظروف البيئة، بما فيها من جفاف وجذب، وشظف عيش وصراع دائم حول موارد الكأ والماء من أجل حفظ الحياة والبقاء».⁽³⁾

⁽¹⁾ - صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، ص394.

⁽²⁾ - لغريبي نسيم: حالة البدو والمهاجرين إلى مدينة توقرت، ص271.

⁽³⁾ - إخلص فخرى عمارة: الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط2، 1421هـ/2001م، ص20.

فالظروف التي يعيشها البدوي هي من حتمت عليه إنتاج القبيلة والتحالف مع القبائل الأخرى يمكن أن تكون نتيجة صلات القرابة أو عن طريق المصاهرة أو صلة الدم وتخضع كلها لنظام محدد وهذه التجمعات القبلية «كتنظيم اجتماعي يهتم بمصلحة العامة أولاً وأخيراً تأخذ مظهرين: الأول مظهر مادي يهدف إلى مواجهة الظروف الصعبة القاهرة التي تضمن لها البقاء ومظهر ثاني يتمثل في الجانب المعنوي المتمثل في القيم والعادات والتقاليد والبدوي مستعد لتقبل ذلك الإلتحام القبلي غنماً وغرمًا»⁽¹⁾ فالبدوي يخضع لقوانين وأعراف القبيلة ويولي أهمية كبيرة للروابط الاجتماعية التي تجعله متمسكاً بعلاقاته مع أفراد القبيلة فقد «حافظت القبيلة على تماسك أفرادها بما يعرف بالولاء القبلي الذي يكفل الترابط بين أفرادها، نتيجة القرابة أو الشعور بالانتماء مما يؤثر على تصرفات الأفراد والجماعات». (2)

وبسبب هذا يظهر تلاحم أفراد القبيلة واستجابتهم وإغاثتهم الملهوف وإطعام الجائع في وقت الشدة يقول "سويد بن أبي كاهل البشكري:

وإذا هبت شمال أطمعوا * * * في قدور مشبعات لم تجع
وجفانٍ كالجوايب ملئت * * * من سمينات الذرى فيها ترع.

الفرد والقبيلة إذن طرفان متلازمان، لاغني لأحدهما عن الآخر ويظل الرباط الوثيق بينهما قائماً، ما حرص كل منهما عليه». (3)

2- البداءة كقيم:

لقد كان تأثير البيئة الصحراوية القاسية التي نشأ فيها الإنسان البدوي - كان لها - دور كبير في تحديد ملامح شخصيته التي انفرد بها «فالبيئة البدوية هيمنت على مشاعر البدوي وتدخلت في تكوينها وصياغتها

(1) - صلاح الفوال: علم الاجتماع البدوي، صص 396، 397.

(2) - مرقومة منصور: القبلية والسلطة والمجتمع في الجزائر، ص 04.

(3) - إخلاص فخري عمارة: الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية، ص 21.

حسب ما تقتضيه، ودفعت به إلى حياة تنسجم مع ما تفرضه عليه فكان منفعلا معها فعاداته وقيمه مصوغة على ما قدمته تلك البيئة لذلك نراه منفردا في بعض خصائصه بين القبائل الأخرى»⁽¹⁾.

ولعل أهم ما ميز البدوي هو تحليه بمكارم الأخلاق والبسالة والشجاعة «ومن أخلاق البدو الأنفة، والعزة والصبر والكرم والعفة، والوفاء وإغاثة الملهوف وإجارة المستجير والإيثار والجرأة في قول الحق والعفو عند المقدرة والبدو يحفظون أنسابهم ويفاخرون بها»⁽²⁾ فقد كان البدو مضرب للمثيل في حسن أخلاقهم وشجاعتهم وكرمهم وغيرها الكثير ولن نستطيع أن نوفيهم حقهم؛ بل سنحاول أن نسلط الضوء على أهمها والتي كانت رمزًا خاصًا بأصل البادية ومنها:

أ- الكرم:

لقد كان الكرم قيمة متأصلة لدى أهل البادية، ولعله وليد البيئة الصحراوية الصعبة وظروف العيش القاسية، فالإنسان البدوي حاول أن يتأقلم معها بما يتناسب مع قساوة هاته البيئة «ونرى العربي بطبعه يميل إلى مكارم الأخلاق وما يعلي من شأنه في أواسط العرب ومجالسهم وقد جمعت العرب أخلاق السيادة في مجموعة من الخصال كان أهمها الكرم، ولأن الصحراء يكثر فيها الموت والهلاك والجوع فإن البذل والعطاء أحوج ما يكون في تلك الظروف، والبخل والقصور عن أداء الكرم خطيئة بل رذيلة لا يغفرها المجتمع العربي فدخلت المبالغة في الكرم عن أداؤها حماية النفس والعرض والدم»⁽³⁾.

وإن البدوي بسلوكه وقيمه حاول أن يلين قساوة الطبيعة «والضيافة درس من الدروس التي لقتها البيئة للإنسان فقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية، فقد كان المجتمع البدوي يزرع تحت ثقل الصحراء وشظف

(1) - أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداوة في الشعر الجاهلي، ص20.

(2) - المرجع نفسه، ص20.

(3) - فتح الله مغني: القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، إشراف: عبد الله الرحمن فارسي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 2016م/2007م، ص29.

ب- الكرامة:

ترتبط الكرامة ارتباطاً وثيقاً بأهل البادية، فالبدووي يملؤه الشعور بكرامته الشخصية وتقدير ذاته، ودائماً ما تكون عزة نفسه مقدمة على كل شيء، لأنه يعي جيداً أن أي تساهل منه سيجره إلى مالا تحمد عقباه «إن للرجل البدوي ذو إحساس مفطر بكرامته، لا يتحمل أن تناله أية إهانة مهما كانت تافهة إنه واثق بأن أية إهانة تافهة قد تجر وراءها إهانة أكبر منها، فليس هناك قيود أو حدود تردع الناس عن التماذي في الإهانة والإعتداء».⁽¹⁾

ولعل الخبرة والحكمة التي اكتسبها البدوي في التعامل مع غيره، هي التي تؤول لنا صرامته وحرصه على أن يكون سيد نفسه في كل المواقف وكلمته مسموعة وقراراته مأخوذة بعين الاعتبار «إن البدوي سريع الغضب شديد النعمة وقد جاءه ذلك من شدة إحساسه بكرامته الشخصية، فهو يعتمد حالاً إلى إنتشاق سيفه ليضرب من يتجرأ عليه كائناً كان (...) حين ندرس تاريخ الجاهلية نجد مملوء بالمعارك الطاحنة والمنافرات الطويلة التي حدثت جراء هذا الإحساس المفرط بالكرامة والغضب الشديد عند البدوي».⁽²⁾

إن الشعور بتقدير الذات لا يتوقف عند حفظ الكرامة الخاصة، بل يتعداه إلى حفظ كرامة الجار والقبيلة ككل فأبي إعتداء لفظي أو جسدي على أحد أفراد القبيلة هو مساس وإنقاص من كرامة الجماعة «كانت المحافظة على الجار مظهر آخر من مظاهر البطولة الإجتماعية لدى الفارس البدوي الذي كان حريصاً على أن يحمي الضعيف ويدافع عنه (...) فقد كان المجتمع البدوي حريصاً على ألا يُتتهك عرض الجار، وعلى أن تبقى الجارة مصونة بعيدة عن الإعتداء عليها، فقد كان من أكرم صفات البدوي في كل مكان وزمان».⁽³⁾

⁽¹⁾ - علي الوردى: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، دار الورق للنشر، العراق، ط1، 1965م، ص67.

⁽²⁾ - المرجع نفسه، ص67، 68.

⁽³⁾ - أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداوة في الشعر الجاهلي، ص28، 29.

ج- الجرأة والشجاعة:

لعل صلابة قلوب أهل البادية اكتسبت من العيش قي القفار والبراري وبين وحوش الصحاري دون خوف أو رهبة، وكأن لحروبها نصيب كبير في شجاعة أهل البادية « مفخرة العربي وحياته شجاعته يلبسها وتلبسه سواء كان غنيا أم فقيرا، وذلك أن أهل البادية متفردون عن المجتمع بعيدين عن الحماية يعيشون في العراء غير محتمين بأسوار أو جدران فهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم ولا يوكلونه إلى سواهم، وإذا تقضينا حياة العربي وجدنا أن الشجاعة ولدت معه وقد شب وكبر وهي تتمشى في دمه، كيف لا وقد تربى في بيئة تمتدح البطولة وحسن البلاء والصبر وأهوال الحروب وآلامها». (1)

وهذا ما يفسر لنا جرأة أهل البادية وشجاعتهم فالموت أهون عليهم من أن يكون جباناً، فالشجاعة صفة الرجال دليل الرجولة «إنه لا يتردد أو يتلصق في لحظة الغضب فذلك في نظره عيب ودليل على الجبن والضعف ومن هنا جاء احترامهم للرجل الفاتك، والفاتك هو الذي يسرع إلى الضرب أو القتل حالما تخطر على ذهنه خالجة تأمره بذلك وكذلك البدوي». (2)

ولعل فخر أهل البادية بشجعان قبائلها، كان حافزا إضافيا يزيد من جرأتهم في مواجهة كل التحديات والأخطار دون خوف أو تراجع ولا خيار له سوى أن يعيش بطلا أو يموت بطلا لتخلده أشعار وحكايا أهله ويبقى رمزا لهم «نجد في حياة البدوي (...) الجرأة والشجاعة التي تمثلت بالمخاطرة والمجازفة وقد جعلت من مفاخر البداوة وصورة الشجاعة عند البدوي ليست جديدة في الشعر العربي فهي صفة إتسم بها معظم العرب ومن ذلك قول "ابن طفيل":

إذ نَعَى الحرب ناغُوها بدت لهتم ** أبناء عامرٍ تُزجي كل مُخترع

(1) - فتح الله مغني: القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، ص34.

(2) - علي الوردى: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص68.

عليهم البيض والأبدانُ شايعةٌ ** يُقحمون كأن القوم في رهج»⁽¹⁾

فالبدو شجعان لا يدخلهم الضعف أو الجبن، لا يهابون شيئاً لأن خوفهم أو تراجعهم سيسبب لهم إهانة هي عندهم أشد من الموت، لذا نجد البدوي مصمماً على أن يصون كرامته وأن يحميها، وحين تدور الحروب نجد أهل البادية أسوداً ضاربة لا تتراجع حتى تحقق نصرها.

3- البداءة كثقافة:

لقد تميزت الحياة الثقافية البدوية عن غيرها في الحضر منذ الظهور الأول لهذه الشائبة، حيث نجد فيها حياة مختلفة ومغايرة لما يسود الحضر، فأهل البادية أقاموا لأنفسهم حضارة خاصة تتلاءم مع طبيعة بيئتهم ومع سلوكياتهم وتركيباتهم الفكرية المختلفة، حيث أننا اليوم أصبحنا أمام منظومة ثقافية ثرية بإرثها المختلف، والذي لا ينسب لسواها «فالبينة البدوية هيمنت على مشاعر البدوي وتدخلت في تكوينها وصياغتها حسب ما تقتضيه ودفعت به إلى حياة تنسجم مع ما تفرضه عليه فكان منفعلاً معها، فعاداته وقيمه مصوغة على ما قدمته تلك البيئة، ولذلك نراه منفرداً في بعض خصائصه بين القبائل الأخرى».⁽²⁾

فالبدوي إذا استطاع-وعن غير قصد- أن يؤسس لنفسه حضارة خاصة طبعت باسمه؛ هذه الحضارة قامت تحت ضغط البيئة الصحراوية القاسية « فالصحراء كان لها فضل كبير على البدوي في توجيه حياته وفكره وسلوكه وهي مكان وهي ظروف-لكنها- على الرغم من ذلك تركت أثراً لا تمحوه الأيام من ذاكرة الإنسان ابن الصحراء تقلب في رحمها وانطلق منها في تشييد حضارة الكون وإضافة لبنات أساسية في صرح شموخها وعطائها وتوجهها».⁽³⁾

⁽¹⁾ - نقلا عن: أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداءة في الشعر الجاهلي، ص26.

⁽²⁾ - أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداءة في الشعر الجاهلي، ص27.

⁽³⁾ - المرجع نفسه ، ص27.

فالبدوي وجد نفسه في بيئة لها ثقافة خاصة، هذه الثقافة التي ساهمت بقدر كبير في تكوين شخصية الفرد البدوي «الفرد حامل للثقافة في المجتمع (...) ففي الثقافة يلتقي الفرد والمجتمع ويساهم كل منهما بنصيبه فيها، فالمجتمع يعلم الفرد الثقافة من خلال التنشئة الاجتماعية».⁽¹⁾

ولأن الحياة الثقافية البدوية متشعبة -وإني أقول الحياة الثقافية- لأنها شملت مختلف مناحي الحياة إنطلاقاً من طريقة العيش المنفردة إلى العادات والتقاليد واللباس وصولاً إلى الفواصل الفكرية المميزة لأهل البادية وفيما يلي:

أ- العادات والتقاليد:

تتميز البيئة البدوية بنظام ثابت من العادات والتقاليد، وبها يثبت النظام التراثي داخل العشيرة الممتدة «للبدو تقاليد وعادات كثيرة أكثر من أن تحصى انتقل بعضها بالتسلسل من الآباء إلى الأحفاد وحفوظ عليها كما لو كان شريعة لا يصح الإخلال بها وبعضها نشأ بحكم الضرورة القاهرة، من شطف العيش وضيقه، وقساوة البادية ومرارة العيش فيها».⁽²⁾

وعادة ما تكون هذه العادات والتقاليد المتفق عليها في البادية أنظمة محرم تجاوزها، فلا جرأة لأحد بأن يخاطر بسمعته أو شرفه وأحياناً كثيرة حياته ليكسر أحد هذه الأعراف «وتمارس تلك الأعراف والتقاليد ضغطاً اجتماعياً على جميع الأفراد، فلا يستطيع أحد التحرر منها وإلا فإنه يعرض نفسه للإستخفاف والإزدراء والعقاب أحياناً والنبد أحياناً أخرى وربما يضطر إلى الهروب خارج العشيرة أو القبيلة وهذا النمط الثابت أدى إلى إستمرار عادات وقيم وبقائها على ما هي عليه، منذ ما قبل الإسلام حتى عصرنا الحالي».⁽³⁾

⁽¹⁾ - فائزة إسعد: العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: حجاج الجنيد، جامعة وهران، الجزائر، 2011م/2012م، ص 57.

⁽²⁾ - أحمد اسبيتان الشوارة، مظاهر البداوة في الشعر الجاهلي، ص 19.

⁽³⁾ - المرجع نفسه، ص 19.

ولهذا فإننا نجد البدوي مختلفاً متفرداً لا يحكمه قانون ولا سلطة، سوى قانون الأعراف والتقاليد لأنه يستمد قوته ورمزيته من البيئة الصحراوية الصعبة «ونظراً لتمييز البدو والبداءة فقد أشارت العديد من الدراسات إلى ضرورة التعامل معها بطريقة مختلفة لا إصافهم بصفات معينة، فالبدوي يعتز بتراثه وعاداته وتقاليدته».⁽¹⁾

ب- اللباس:

لقد كان لباس البدوي من إنتاج الطبيعة سواء أكان من ورق الأشجار أو جلد الحيوانات، ولأن حياة البادية كانت بسيطة لا تعتمد على أدوات معقدة، كان عليه أي يهتدي للطبيعة ليلي مختلف حاجاته، فكان يصطاد الحيوانات كغذاء ويتخذ صوفها أو جلدها ليصنع لباس بدائي يرتديه «من أهم الألبسة التي تختص بلبس البدوي في العصر الجاهلي الإزار وهو الملحفة (...) وقيل سمي الإزار إزار لحفظه صاحبه وصيانتته جسده».⁽²⁾

فاللباس أيضاً مظهر من مظاهر الثقافة البدوية، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة وهذا ما جعله مميزاً ومنفرداً «أهم مظهر يميز الإنسان البدوي هو اللباس إذ تختلف مظاهر الملابس في المجتمعات وكل مجتمع له طابع خاص في الملابس وتحدد كيفية وشكل الملابس تبعاً للاستخدامات - كما يشير إلى المكانة الاجتماعية والدينية للشخص أو نوع المهنة التي يمارسها الفرد فهناك مثلاً معنى من استخدام رجال البدو اللثام (...) فالتراث الثقافي للمجتمعات البدوية يعكس بجلاء كفاح الإنسان وجهوده من أجل إشباع حاجاته البشرية».⁽³⁾

ج- الزينة:

إن الفطرة الإنسانية التي خلقت عليها الأنثى، تميل إلى حب التزيين والتجميل في محاولة لإبراز مفاصلها ومحاسنها ولم تختلف المرأة البدوية على نظيرتها في الحضر في استخدام مختلف أدوات الزينة، وقد كانت نساء البادية يتسابقن فيما بينهم في استعراض جمالهن، فكن يعتمدن على مختلف أنواع الحلبي من ذهب وفضة «ولم يقتصر

(1) - لغريبي نسيم: بناء المجتمع التقليدي، ص 273.

(2) - أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداءة وصورها في الشعر الجاهلي، ص 71.

(3) - لغريبي نسيم: بناء المجتمع التقليدي، ص 294.

الذهب على أهل الحضرة بل كان البدو ممن اهتموا بالذهب أيضا، إما لتزيّن النساء أو إدخروه للمقايضة في البيع والشراء، ولكن لا ندعي هنا أنه كان يشكل أكبر من الحضرة، ولكنه كان حاضرا في إهتمام البدوي نساء ورجالا»⁽¹⁾ وتأتي الفضة في المرتبة الثانية برغم من أنها أقل تكلفة.

وهناك مظاهر آخر لزينة كالعطر والحناء والوشم: «وعند إستحضار ملابس البدوي فإن البساطة كذلك أكثر ما يميز ملابسهم للنساء والرجال معًا، وهذا لا يعني أنهم لم يكونوا مهتمين بملابسهم-خاصة النساء- فكانت النساء تبحث عن الملابس التي تبدي جاهلن، وكذلك أدوات الزينة المختلفة ولكن من الملاحظ على ملابسهن وزينتهن أنها كانت تراعي البيئة التي تحتضن نساء البادية فالبساطة وإنخفاض التكاليف من أبرز ما يميز ما يلبسن من تلك الملابس».⁽²⁾

د- الفواصل الفكرية:

إن ما يميز الثقافة الفكرية البدوية كان ولا يزال سمة المشافهة فقد كانوا يعولون كثيرا على حفظ مختلف ما تجود بهم قرائحهم من فنون القول المختلف من شعر وأمثال وغناء وغيرهم، «فقد كانت المشافهة السمة الغالبة على الثقافة البدوية «يعول البدوي في المقام الأول في فكره أو حصيلته الذهنية على ذاكرته وذلك لعدم وجودحافظة بديلة لها يقيد فيها ما يريد إسترجاعه عند الضرورة، كما أن جهله بالكتابة غالبا يكون له الأثر البالغ في تنمية ذاكرته وتوسيعها لتخزن أكبر قدر من إهتمامه خاصة في مجال الشعر والمثال».⁽³⁾

فقد برع البدوي في قول وحفظ مختلف الثقافات الشفهية الصحراوية على الرغم من أنهم كانوا قوما جاهلين للقراءة والكتابة «فيما عدا أبناء المشايخ والأمراء فإن الأكثرية الساحقة من البدو وأميين لا يعرفون القراءة والكتابة، وهذا لا يعني أنهم جهلة أو أغبياء، فإن عندهم ذكاء فطريا وهم يتعلمون من مجالس الكبار ما يسمعونه

(1)- أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداوة في الشعر الجاهلي، ص83.

(2)- المرجع نفسه، ص87.

(3)- عمر محمد عبد الله: أثر البداوة في شعر العباسي، مذكرة لنيل درجة الماجستير، إشراف: سيد أبو إدريس أبو عاقلة، جامعة أم درمان، السودان، د س، ص12.

من مشايخهم وكبارهم يروون القصص والأخبار والنوادر والقصائد والأغاني وما إلى ذلك من المعارف يتعلمونها بالتواتر». (1)

وهذا ما يفسر لنا ثراء الثقافة الشفهية التي تناقلت عبر الأجيال، وعبرت عصور مختلفة، ومنها الكثير - إلى أن وصلت إلى يومنا هذا «ولقد أثبتت ذلك الدراسات الحديثة التي أوضحت أن الشعوب البدائية أحد ذاكرة من الشعوب المتحضرة ويعزى ذلك لإعتماد المتحضر على بعض الوسائل الحديثة لحفظ بعض أهم أو معظم ما يريد استحضاره عاجلاً كان أم أجلاً، وأكبر دليل على ذلك أن أهل القرآن الكريم والحديث النبوي جمع في صدور الصحابة الذين كانوا في الأصل بادية». (2)

ويفسر بعض الدارسين اعتماد البدوي على ذاكرته بدرجة أولى إلى البيئة البدوية القاسية بقولهم: «وربما يرجع اعتماد البدوي على ذاكرته إلى أن إهتمامه كان مقصوراً على بعض الجوانب المتعلقة بحياته في البادية، وذلك لضيق هذه الحياة ووقوفها على سبل العيش الذي يقوم على الرعي، بخلاف الحياة في المدينة والحضر». (3)

هـ- الغناء في حياة البدو:

لعل حياة التنقل والترحال الدائم التي يعيشها الإنسان البدوي، كانت السبب الرئيسي في إهتدائه إلى الترحال والغناء في محاولة منه لتحقيق من عناء ومسبقة الترحال في البيئة الصحراوية القاسية فالبدوي «عاش طول حياته متنقلاً مرتحلاً، لا يكاد يستقر به مقام في جانب من الأرض حتى يضطر إلى النزوح منه إلى مكان آخر (...). ولا مرأى في أنه كان يلقي في رحلاته هذه كثيراً من التعب والمشقة». (4)

(1) - ميشال حجا: البدو والبداوة في كتابات من لبنان، ص 167. الموقع الإلكتروني: <http://hekmach.org> 2019/04/17 (PDF).

(2) - عمر محمد عبد الله: أثر البداوة في شعر العباسي، ص 12.

(3) - المرجع نفسه، ص 12.

(4) - زكريا صيام: الشعر الجاهلي، ص 69.

هذه الحياة الصعبة دفعت البدوي للغناء «فهو في أسفاره مرتحلاً ناقته وبعيره، أو فرسه أو مترجلاً يقود مواشيه أو يسوقها وقد قست عليه الطبيعة وأضناه التعب ينظر حواليه في سامة وملل وإعياء ويرى مواشيه وقد أضناها النصب فتناقلت في مشيها فلا يجد أمامه متنفساً لوجده وتنشيطاً لإبله إلا أن يرفع صوته بالغناء»⁽¹⁾.

أي أن الغناء كان بمثابة غذاء النفس والروح لأهل البادية فكان متنفسهم، الذي يجدون راحة ومنتعة بتريده، ولعل ما يدعون للتساؤل عنه هو كيف تعلم أهل البادية الغناء؟ وكيف اهتموا إليه يا ترى؟ وهذا ما يجيبنا عنه مجموعة من الدارسين للبيئة البدوية بقولهم أن البدوي «تعلم في البيئة المحيطة به التغمم والترنم، تعلمه من جنين الإبل وأطيط الرحال، ورغاء الشاه، وصهيل الفرس وخرير الماء وهزيم الرعد وتناوح الرياح وزئير الأسد وعواء الذئب ونباح الكلب وتغريد البلابل والحمام (...). ولا بد له أن يحاكيها بلغته وأن يزيدا بمضي الزمن وتنسيقاً وتنعيماً وتنظيماً، ثم يصير التنغيم والتطريب عنده هواية يعبر بها عن نشوته إذا أنشئ، وينفس بها كربيته إذا أثقلتته الحياة بمومها وأكدرها»⁽²⁾.

فالإنسان البدوي إذن كان ابن بيئته بامتياز، بحيث أنه كان يحاكي الأصوات الموجودة حوله وأنشئ نغم موسيقي كان سنده في حله وترحاله، وما يجب الإشارة إليه أيضاً هو أن الغناء لم يقتصر على الرجال فقط بل كانت النسوة تطلقن العنان لأصواتهن لينافسن الرجال «وإذا فقد شهدت البادية العربية... وترنمها من كل أنواع ولون واشترك فيه الرجال والنساء الحرائر منهن الجوارى وعبروا به عن كل ما تحتاج به مشاعرهم من مسرات وأحزان»⁽³⁾.

(1) - زكريا صيام: الشعر الجاهلي، ص 69.

(2) - المرجع نفسه، ص 69.

(3) - المرجع نفسه، ص 73.

– الحداء في أغاني البدو:

يعد الحداء أحد ضروب الغناء الذي يميز البيئة البدائية فقد تغنوا كثيرا بهذا النوع من الغناء لحاجتهم له في حياتهم اليومية، «ويذهب بعض الدارسين إلى أن الحداء قد تهيأ للعربي مصادفة وأن أول من أخذ في ترجيعه مضرين معاذ بن عدنان حين سقط عن بعيره فانكسرت يده فحملوه وهو يقول وايداه، وايداه وكان من أحسن خلق الله تعالى صوتا وجرسا، فأصغت إليه الإبل وجدّت في السير»⁽¹⁾.

ولعل ما يميز الحداء عن غيره من ضروب الغناء أنه يقال أكثر الأمر، في المناسبات الحزينة «فإنهم يندبون به موتاهم ويرثون قتلاهم ويعبرون عما ينالهم من ألم وأشجان فالندب والرثاء والأنين والتوجع هي ضروب من الغناء وإن تواضع الناس على تسميتها بأسماء أخرى»⁽²⁾.

– أغاني الصيد والحرب:

ولأن حياة البدوي كانت في بيئة طبيعية كان لا بد من أن يتشارك الغناء مع مختلف مناحي حياة الإنسان البدوي كل حروبه وصيده وغيرها «وتأخذ أن في الصيد والحروب ذات التأثير السحري مكانا فسيحا في حياة الأمم البدائية، ولكن العقيدة بأن مثل هذه الأغاني يمكن أن تضمن الظفر بالمراد تلاشت تماما في الجزيرة العربية أمام الفخر بالنجاح والغالب على أن الصيد لم يكن رياضة ومنتعة عند البدو وإنما كانوا يمارسونه للاستفادة من الصيد في التغلب على خشونة الحياة»⁽³⁾.

ولم يختلف البدوي في التزمم والتغني في حياته البسيطة بكل جوانبها وفي أعياده ومواسمه وسمره وفرحه وانتصاره وحتى أحزانه فكان الغناء الصديق المؤنس له في حله وترحاله.

⁽¹⁾ - زكريا صيام: الشعر الجاهلي ، ص70.

⁽²⁾ - المرجع نفسه، ص71.

⁽³⁾ - كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج1، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1119هـ، ص48.

و- الشعر عند البدو:

لعل البيئة التي نشء فيها الإنسان البدوي هي التي ساعدته في نقل هذا المخزون الثقافي المختلف، فقد حمل على عاتقه مسؤولية التعريف ببيئته الصحراوية القاسية ونقل أدق تفاصيلها، هذه البيئة التي فحرت قريحته ليبدع في قول الشعر «فإن البدو هم من حملوا لواء فن الشعر قد أقصوا إلى القرار العميق من وعيهم كل ما كان يمكن أن يُقْلَّ عزيمتهم في الكفاح المرير لضمان مقومات الحياة في الصحاري والقفار، فهم مارسوا أيضا فن وصف الحيوان والطبيعة الذي كان عند أسلافهم».⁽¹⁾

ولقد سار الشعر البدوي نفس منحى الغناء انطلاقا من أنه جاء مناسب وملائم لطبيعة البيئة الصحراوية يقول الأستاذ "عبد العظيم علي قناوي" «نستطيع أن نحكم بأن بيئتهم قد أثرت في حياتهم الصاخبة الصارخة التي لا يستقر لها قرار، ولا ينطفئ لهيبتها، فلونت شعرهم بما يلاءم هذه الحياة فوصفوها أجمع وصف، وصوروها أحكم تصوير».⁽²⁾

فالبدوي كان لسان بيئته، يترجم حبه لها وتعلقه بها من خلال شعره «وأشعار العرب ناطقة بشدة حبهم لبيئتهم وهيامهم بها فإذا خرج البدوي إلى الحضر قال الشعر حسرة على الصحراء ورمالها وهضابها».⁽³⁾

- موضوعات الشعر البدوي:

1- محاكاة الطبيعة:

لم يكن الإنسان البدوي ناكرا لفضل البيئة الصحراوية عليه، فكان يحاكي هذه الطبيعة بسهولة وجبالها ورمالها وخيرها الكثير، وقد تفنن البدوي في وصف جمال بيئته والإفتخار بها «أما موضوعات محاكاة العرب

⁽¹⁾ - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص55.

⁽²⁾ - زكريا صيام، الشعر الجاهلي، ص50.

⁽³⁾ - المرجع نفسه، ص50.

للطبيعة في حياتهم الصحراوية فكانت السماء بكواكبها وبرقها ورعدها وأمطارها وأنوائها، والأرض بسهولة وجبالها ووديانها وهضابها ورمالها ونباتها وعيونها وأبارها وديار المحبوبة الدارسة وأطلالها»⁽¹⁾.

كما حاكوا ديارهم ومجالس أنسهم «فصوروا موائد الشراب وأدواتها وأنواع الخمر وألوانه ولم يغادروا شيئاً من مظاهر الطبيعة إلا سلطوا عليه مناظرهم الشعري فأتوا لنا بالعجب العجاب»⁽²⁾.

فقد كانت الطبيعة مصدر إلهام الشعراء مستوحين منها صور الجمال ف "امرؤ القيس" أول من استوقف

الطلول، يقول "امرؤ القيس" في وصف الطلل:

لمن طللٌ أبصرتهُ فشجاني ** كَخَطِّ الزبور في العسيب اليماني
ويقول: أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ البَالِي ** وهَلْ يُعَمَّنَ مَنْ فِي العَصْرِ الحَالِي⁽³⁾

2- في وصف حيوانات البادية:

لعل حاجة البدوي للحيوان في مأكله وملبسه وتنقله في أثناء حله وترحاله كان له الأثر البالغ في قوله الشعر فيه فلم يستثنى لا وحوش الصحراء ولا ضباعها ولا كلابها «كما صوروا أسباب التنقل والترحال فتناولوا في شعرهم الناقة والفرس وبقر الوحش والكلاب والغزلان وسائر أنواع الحيوان الذي شاهدوه (...) فوصفوا ذئابها العاوية، وظباءها السارحة، كما وصفوا جوارح الطير وصوادحها وخشاش الأرض وهوامها»⁽⁴⁾.

ويعرف على البدوي بأنه إنسان وفي لبيئته، وهذا ما تجسد لنا فعلاً بوفائه لصديق دربه الأول وحامل أسفاره في حله وترحاله، فقد كان يقول الشعر أكثر الشيء في الإبل «ولم يكن حيوان الوحش هو الذي برز إلى المرتبة الأولى من اهتمام الشاعر وإنما هو حيوان ركوبه ومرعاه، وهو الجمل ويجب أن نضع نصب أعيننا أهمية الإبل

(1) - زكريا صيام: الشعر الجاهلي، ص50.

(2) - المرجع نفسه، ص50.

(3) - امرؤ القيس: ديوان امرئ القيس تحقيق: مصطفى عبد الشافي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، ، 1425 هـ / 2004م، صص59، 60.

(4) - زكريا صيام: الشعر الجاهلي، ص50.

للعربي من حيث أول مصدر وأهمه لضرورات حياته، ومن حيث هي الرفيق الذي لا يعرف الملل والكلل في رحلاته التي لانهاية لها في القفار والبراري»⁽¹⁾.

فقد أخذت حيوانات البادية قسطاً أوفر من التصوير ومن ذلك تصوير "الأعشى" للناقة وقطعها للطريق وكأنها تلتهم الآكام وتغتال الفجاج:

إذا ما الأثمات وتين حطت ** على العلات تجترغ الإكاما
بناجية من سرة الهيجا ** ن نأتي الفجاء وتغتها (2)

3- في وصف غاراتهم وأسلحتهم:

كما لم يتخلف البدوي عن محاكاة حروبه وغاراته وأسلحته، ولم ينسوا أن يصفوا حياتهم في جدهم ولهولهم وضعفهم وإقامتهم وسلمهم، وحربهم وأن يصفوا أدوات الحرب كالسيف والرمح والفرس والقوس والسهم: «وكانت الحرب تحوز اهتماماً كبيراً من أهل البادية لشجاعتهم وبسالتهم في الدفاع من أي عدو خارجي ولكن الحروب كانت في بعض الأحيان تكاد تستأثر بكل تفكير البدو، ولذلك لعبت دوراً من أهم الأدوار في أشعارهم»⁽³⁾ فقد كانت موضوعاً أساسياً في أشعارهم، أي أن حروبهم كانت بالسيف واللسان «فالبدو يعدون اللسان من أهم أسلحتهم في الحروب ولعلمهم يعدونه أحياناً أمضى وأشد وقعاً من السيف، فهم يقاتلون بألسنتهم أحياناً وبسيوفهم أحياناً أخرى وكثيراً ما يتحاربون بكلا السلاحين معاً في أن واحد»⁽⁴⁾، وقد كان الشاعر البدوي في قومه ملكاً يحضى بنفس التقدير والإحترام الذي يحضى به الفارس المقاتل فكلاهما يدافعان عن القبيلة والفرق بينهما في نوع السلاح.

(1) - كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ص 55.

(2) - الأعشى: ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمد حسين، مكتبة الأدب، د ب، د ط، 1960م، ص 18.

(3) - كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ص 49.

(4) - علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص 73.

فالبداوة رمز للشدة والبأس والفروسية والشعر الجاهلي سجل للفخر والفروسية وسجل للحروب وأدوات هذه الحروب، فأهل البداوة حريصين على إتقان السلاح كمصدر للهيبة ودلالة على الإقدام في الحروب يقول "عنتر بن شداد":

تُعَيِّرُنِي الْعَدِي بِسَوَادِ جَلْدِي ** وَبِيضِ خِصَائِلِي تَمْخُو السَّوَادَا
سَلِي يَا عِبْلَ قَوْمِكِ عَنْ فَعَالِي ** وَمَنْ حَضَرَ الْوَقِيعَةَ وَالطَّرَادَا
وَرَدْتُ الْحَرْبُ وَالْأَبْطَالَ حَوْلِي ** تَهَزُّ أَكْفَهَا السَّمِرِ الصَّعَادَا
وَحَضَّتْ بِمَهْجَتِي بَحْرَ الْمَنَائَا ** وَنَارُ الْحَرْبِ تَتَقَدُّ اتِّقَادَا⁽¹⁾

فالبدوي إذا لم يترك شيئاً متعلقاً ببيئته إلا وتحدث عنه حبا وتعلقا بصحرائه «فلم يدعوا مما يقع في محيطهم أو تحت سمعهم وبصرهم شيئاً إلا تحدثوا عنه، وأشادوا به ولم يروا من بأسائها ضرا إلا ذكروه وشكوا منه فخلدوا بشعرهم ببيئتهم وأبقوه على الدهر صورة لحياتهم هي أصدق سفر للمؤرخين وأدق سجل للباحثين».⁽²⁾

فالباحثون اليوم أثناء دراستهم للبيئة البدوية يعتمدون كثيرا على شعر البدو وأغانيتهم لفهم طريقة عيش البدو من مختلف النواحي لأنه جاء مُترجِّمًا ومُبَسِّطًا لها ولولا هذا الموروث الثقافي لما استطعنا اليوم أن نكون في صورة ما حدث منذ زمن طويل، ولعل الإنسان البدوي اختار الغناء ليخفف به عناء ترحاله المتواصل في القفار والبراري واختار الشعر كي يكون شاهد على عرق الحضارة البدوية رغم بساطتها وقساوتها.

ثالثا: الأمير عبد القادر والبادية

كانت الجزائر قبل مجيء الإستعمار الفرنسي تحيا حياة البداوة، في ظل ثقافة عربية أصيلة، متمسكة بالهوية العربية، إذ نهل "الأمير عبد القادر" وتشبع بالثقافة البدوية حيث ربط العربي بالبادية عند رده على الجنرال

(1) - عنتر بن شداد: ديوان عنتر، مطبعة الآداب، بيروت، لبنان، ط4، 1893م، ص29.

(2) - زكريا صيام: الشعر الجاهلي، ص51.

"كلوزيل" بقوله: «فإذا كان السمك صاحب البحر، فإن العربي سيظل كذلك صاحب البادية»⁽¹⁾ وهو ما يكشف منذ البداية عن علاقة بين الأمير والعيش في البادية والمتتبع لحياة الأمير عبد القادر تستوقفه هذه العلاقة المتينة بين الأمير والبادية.

1- التنشئة البدوية:

ولد الأمير عبد القادر في قرية القيطنة بمعسكر هذه القرية البسيطة المتواجدة في أعالي جبال معسكر بعيدة عن حياة التمدن في كنف أسرة عريقة ومحافظة «تلك البيئة التي ترتبط في خيالها ومواجهها وأعرافها وتقاليدها بالبيئة العذرية تلك البيئة التي عاش فيها أسلافه من بني عذرة في الجزيرة العربية عصر بن أمية، فكان حرًّا أن يتأثر بشيء مما تحفل به تلك التقاليد من حنين إلى مواطن الحجاز»⁽²⁾ فقد نشأ الأمير في الطبيعة وتمتع بمناظر البادية بأوديتها وأشجارها وامتداداتها إلى أن «أرسله أبوه محي الدين للدراسة في مدرسة يسيرها "سيدي أحمد خوجة" غير أن عبد القادر نفر من أسلوب الدراسة بقدر نفوره من حياة وهران] فهذا يدل على أن الأمير عبد القادر اعتاد البدوية في قرينته القيطنة وتعلق بها] فلم يستقر أكثر من سنة ليعود بعدها إلى القيطنة».⁽³⁾

عندما عاد الأمير عبد القادر إلى قرينته أصبحت تستهويه حياة القرية وأخذ يرتبط بحياة البدوي، ومع اكتمال بنيته الجسدية اشتد الأمير عبد القادر وبدأت مظاهر القوة تبدو عليه جليّة وبرزت مواهبه ولعل أول ما اهتم به "الأمير عبد القادر" إتقان فن الصيد « فقد كانت متعته في ممارسة هوايته المفضلة (الصيد)، وأتقن صيد الباز والغزال والخنزير البري والنسر، ولم يكن في رحلة الصيد يميل إلى تلك التظاهرات الفخمة التي كان يعتمد عليها (الأجواد)، فيتوغل في أعماق الغابة بحثًا عن صيده المفضل (الخنزير البري) حتى إذا ما حقق هدفه عاد من رحلته

(1) - أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1975م، ص 57.

(2) - سليمان عشراقي: الأمير عبد القادر - مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة المباحث -، ص 74، 75.

(3) - بسلام العسلي: الأمير عبد القادر الجزائري، أم النفاس، د ب، ط 2، 1986م، ص 20، 21.

الرياضية ليعزل نفسه للدراسة بجوية والتفرغ للعبادة»⁽¹⁾ فرغم أن الصيد كان موهبة فطرية عند الأمير عبد القادر إلى أنها أكسبته جرأة وشجاعة بارزة، فالعرب ومنذ القدم اشتهرت بالصيّد ولا تهاب حيوانات الغابة أو الصحراء فالبدوي يستغل موجودات الطبيعة في غذائه ويعتبرها مفخرة وتدريبًا جسديًا وفكريًا.

وأفضل الأعياد الشعبية عند الأمير عبد القادر وسم المواشي حيث تختلط مئات الجمال والبغال المحملة بالحلف (...) وتخييم الجموع في السهل إلى مدّ البصر، يعجّ من حولها الغبار ويتصاعد دخان نيران التخييم هذا الجو كان يجتذب الأمير عبد القادر حيث أدرك العادات وكل مفاهيم العرب حول الخيول وتعلم بيطرة الخيل وأنعالها.⁽²⁾

كل هذه المظاهر التي تستهوي الأمير عبد القادر " تعبر عن حياة بدوية أصيلة « فقد تشبّع الأمير بمظاهر أوديتها مسالكها أشجارها وامتداداتها انعكست بصفاء في روحه وأفكاره إن هذه المغامرات العنيفة التي تمز طاقات البدن والعقل معًا تعد الجواد إلى ملاقات الأشدّ جدية في العرب فالصيّد هو مدرسة الغارات».⁽³⁾

2- بين الأمير عبد القادر والبادية:

أ- البساطة:

من أهم خصائص الشخصية البدوية البساطة والبعد عن التكلف «فقد كان الأمير عبد القادر كسأؤه بسيط وصریحًا وليس سوى سلاحه يظهر الزينة، بندقية مرصعة بالفضة ومسدس بالجواهر وسيفه في غمدٍ من فضة».⁽⁴⁾

(1) - بتمام العسلي: الأمير عبد القادر الجزائري، ص21.

(2) - ينظر: برونو إتيين: عبد القادر الجزائري، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، د ط، 2009م، ص83.

(3) - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، د س، ص41.

(4) - محمد بشير بوجرة: الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، منشورات دار الأديب، الجزائر، ط1، 2009م، ص42.

فالأمير عبد القادر يحب البساطة رغم امتلاكه لقصر فيه كل وسائل الراحة « فثيابه فإنها في منتهى البساطة ومن الصعب معرفته بين جمع غفير من العرب فحياة الأمير بسيطة كثيابه، فهو يسكن منذ أن هدم قصره في معسكر خيمة عادية لا يتركها، وطعامه زهيد، ولا يخشى الأمير الجوع ولا التعب»⁽¹⁾.

وهذا وإن ذل يدل على سمو أخلاق الأمير حتى «الخيمة التي كان يقيم فيها الأمير كل ما فيها في غاية البساطة فلا وجود لزرابي فاخرة أو أرائك من حرير وهذه الخيمة حاليا معروضة في متحف قرب باريس»⁽²⁾.

ب- القبيلة عند الأمير عبد القادر:

تشكل القبيلة الانتماء الحقيقي للإنسان البدوي وهي من أمتن الروابط التي يتعلق بها الفرد فهي تمثل إنتمائه ويحس بالولاء القبلي لها مما ينعكس على سلوكياته ويدافع عليها بكامل قواه والشاعر لسان حال قبيلته فالأمير لم يخرج عن هذا المسار «فالأمير شأنه شأن كل الشعراء العرب الذين سبقوه في مدح أقوامهم والإشادة بمفاخرهم وتعظيم انتصاراتهم فالأمير يفتخر بأجداده وآبائه (...) كما يفتخر بفقته عشيرته وحرص على إظهارها بأحسن صورة وأجلاها في ذلك المجتمع، وكلما رفع من شأن عشيرته رفع من قدره وشأنه لأنه زعيم هذه العشيرة»⁽³⁾.

3- الفروسية عند الأمير عبد القادر:

أ- الخيل: الخيل أكبر دليل على شجاعة وقوة الإنسان البدوي يعكس مدى قدرته على تحمل الصعاب وهو رمز للفروسية والبطولة حيث نلاحظ تعلق الأمير بفروسه ومدحه له خلال الحروب مشابها مدح عنزة بن شداد لفروسه «ظهر الفرس ملازمًا للأمير عبد القادر في مواضع عديدة، سواء كان ذلك في السلم أو في الحرب، لكن ظهوره في

(1) - أبو العبد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، ص35.

(2) - محمد الشريف السحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، تر: محمد يحياتن، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، د ط، 2008م، ص140.

(3) - بوجعة بوبيو وآخرون: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث-الأمير عبد القادر نموذجًا-، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، د ط، 2012م، ص69.

أوقات الحرب كان أقوى وأجلى في نفس الأمير عبد القادر (...) هذا يكشف مكانة الفرس في قلب الأمير كفارس وكشاعر في الوقت ذاته»⁽¹⁾ فالأمير منذ بلوغه سن السابعة عشر أتقن ركوب الخيل حتى أصبح يضرب به المثل في ذلك «إنه يلمس كتف فرسه بصدره، ويضع إحدى يديه على ظهر الفرس، ثم يقفز إلى الجانب الأخر أو أنه يدفع الفرس إلى أكبر سرعة ممكنة، ثم ينزع قدميه من الركاب ويقف على السرج ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة، ولمسته الخفيفة الماهرة يثنى الفرس العربي المدرب ركبته، يمشى مسافات على قائمته الخلفتين بينما تضرب قائمته الأماميتان في الهواء أو يلوح ويقفز بهما كالغزال».⁽²⁾

فقد شاءت الأقدار أن يعيش الأمير كفارس مثل الفرسان العرب من أسلافه خلال الحروب مثل عنزة بن شداد كان نتيجة للبيئة العريقة المحافظة على رموز الهوية العربية والحرب ضد المستعمر من جهة أخرى.

ب- الصحراء:

عايش "الأمير عبد القادر" فترة حاسمة من تاريخ الجزائر تمثلت في الإستعمار الفرنسي تلبيتاً لواجبه الوطني كرجل حرب وسياسي وقائد ثوري «فقد صرّح بيجو عام 1843م، قائلاً: كيف يمكن الانتصار على عبد القادر، هل تعلمون أين تكمن قوته؟ إنها في إستحالة العثور عليه، إنه في المكان الرّحب من الصحراء وبين الكثبان الرملية، وندرة المياه إنه من الفضاء الواسع في شمس إفريقيا الحارة، في الغابات والأدغال هذه الطبيعة هي سرّ قوته».⁽³⁾

فقوة الأمير تمكّنه من الانتصار لأنه ابن الصحراء، تنقل فيها وتأقلم معها فسياسته تعتمد على معطيات جغرافية ومقتضيات الطبيعة الصحراوية للجزائر، فقد تميز الأمير بمقدرة كبيرة وفروسية عالية راجعة لتعوده على التنقل والترحال بين الريف والصحراء كما كان لرحلته إلى الحج أيضاً أثر في شجاعته «فقد تصارع الأمير فيها مع

(1) - بوجمة بويغيو وآخرون: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، ص44.

(2) - بسلام العسلي: الأمير عبد القادر الجزائري، صص20،21.

(3) - بديعة الحسني الجزائري: الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ج3، تر: أبو القاسم سعد الله، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1434هـ/2012م، ص338.

عواصف الطبيعة الصحراوية، ووقف على تداخل تضاريسها الخالية من الحياة البشرية، ونعتقد أنه عانى الكثير من تعقيدات مسالكها التي لا يقدر السير فيها إلا أولى البأس الخابرون بأسرارها من ذوي الخبرة في إنتقاء الأماكن الملائمة لتخييم، من حيث التموين بالماء الشروب والحراسة والأمن»⁽¹⁾.

وهنا إشارة واضحة إلى الإنسان البدوي القادر على السير لأميال متحملا قسوة الطبيعة الصحراوية وحتى متحديًا لها وهذا ما نجده يتطابق مع الأمير عبد القادر.

4- كفاحه ضد المستعمر (الزماله):

رغم اختلاف البيئة واختلاف الزمان إلا أن الأمير عبد القادر نهل من النبع الذي نهل منه أجداده خلال كفاحه «قد لا يشك أحد في موقفه "حنق النطاح" من الوجهة التاريخية والمكانية فهي معركة وقعت فعلاً (...)» أضاف عليها الأمير عبد القادر روح الفروسية العربية القديمة ما يجعلنا نتخيل أن تلك الموقعة لا تجسد معركة في العصر الحديث ووسيلتها البنادق والمدافع (...) وقوامها الرماح والسيوف»⁽²⁾، حتى أن الأمير عبد القادر إستلهم من ملامح البادية وخصائص العيش فيها أسلوبا في مقاومته حيث أسس مدينة المتنقلة أطلق عليها اسم الزماله وهذا مراعاة لنمط حياة القبائل المتحالفة معه والمتمثل في الترحال وعدم التمرکز في مكان واحد، وكان هذا القرار في صالح الأمير فهو يعي جيدا كل ما يحبه البدوي كالتنقل والسكن في الخيام والطبيعة.

- إقامة المعسكر ورحيله: فالمعسكر كان مجموعة من الخيام البدوية المتنقلة «اتخذ المعسكر شكلا دائريا ثبت على جانبي مدخله الرئيس مدفعين وتوزعت الخيمة المخروطية بطريقة جد مدروسة، وفي مقدمة المعسكر خيمة قائد سلاح المدفعية تقابلها خيمة رئيس الأطباء ومعاونيه، وعلى مسافة ستة أمتار من خيمة الأمير يقع مركز رايات ومربط خيله وعلى يمينها ويسارها تنصب خيم كتبه وحراسه، ومن ورائهم خيم محافظي الخزينة ومستودعات

⁽¹⁾ - بن سميحة محمد: التقليد والتحديد في شعر الأمير عبد القادر، رسالة لنيل شهادة دكتوراه، إشراف: بوجلة ندير، جامعة الجزائر، 2007م/2008م، صص 6،7.

⁽²⁾ - بوجمة بوبعوي وآخرون: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، ص 118.

والأسلحة»⁽¹⁾ إذن فالأمير وخلال كفاحه حافظ على أسس عديدة ورثها عن أسلافه فأضاف إليها أوعد لها بما يتناسب ومقتضيات الوضع أثناء الثورة، وعاد الأمير مرات عديدة إلى السرسو والتل والونشريس لتحريض القبائل لإفراغ الجنود الفرنسيين الذين قاموا بدورهم بمطاردة المنتفضين، وإقامة دوريات للحراسة في البوادي وبناء الأبراج ومراقبة البدو الرحل وتشجيع القبائل على الموالاة.⁽²⁾

5- موقفه من المدينة:

لقد كان للحياة البدوية البسيطة التي ترب عليها الأمير عبد القادر الوقع الأكبر في توجهه الفكري حتى أنه كان له تجارب مع العيش في المدينة، لكنه لم يستصغ هذه الحياة وفضل البادية وأفتخر بها وعبر عن توجهه هذا عن طريق الشعر عند سقوطه أسيرا في سجن "أمبواز" بفرنسا حيث قضى معظم وقته في العلم لكن الفرنسية استنزوه بموضوع البدو والحضر وأيهما أفضل فاحتكموا إلى الأمير عبد القادر فأنشد قصيدته المعروفة " ما في البدَاوة من عيب " كانت صورة واضحة عن علاقة الأمير بالبادية مكونة من خمس وثلاثين بيتًا وكان مطلعها:

يا عاذراً لامرئٍ قد هَامَ في الحضرِ ** وعادلاً لمحِبِّ البدوِ والقفرِ

لَا تَذمَن بيوثًا قد خَفَّ مَحْمَلَهَا ** وتمدحَنَّ بيوتَ الطينِ والحجرِ.⁽³⁾

فقد تربى الأمير في كنف البادية والمتبع لمحطات حياته يبدو له جلياً أن الأمير أستلهم مظاهر البدَاوة بدءاً من طفولته إلى مسيرته النضالية، فالبدَاوة عند الأمير نابعة عن انتمائه العربي الأصيل وعن تجربة واقعية صقلت بدَاوته وجعلتها ميزة خاصة بالأمير يفتخر بها أيما افتخار.

(1) - فريدة قاسي: الدولة في فكر الأمير عبد القادر، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، د ط، 2012م، ص 206.

(2) - مرقومة منصور: القبيلة والسلطة والمجتمع في الجزائر، ص 47.

(3) - الأمير عبد القادر الجزائري: ديوان الشاعر: تحقيق: العربي دحو، منشورات ثالة، الجزائر، ط 3، 2007م، ص 50.

الفصل الثاني

شعرية استحضر البادية
في شعر الأمير عبد القادر

I: الأمير عبد القادر وتجربته الشعرية

أولاً- الأمير عبد القادر (نسبه، مولده ونشأته)

الأمير عبد القادر بن محي الدين الملقب بعبد القادر الجزائري هو أحد رموز الثورة الجزائرية المجيدة، وهو مناضل ومجاهد وزعيم سياسي وكاتب وفيلسوف ناضل وجاهد ضد الإستعمار الفرنسي الغاشم، نضال السيف واللسان فكان بحق رمز للمقاومة الجزائرية المباركة ومؤسس للدولة الجزائرية المباركة ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة.

أصله ونسبه:

وأما اسمه ونسبه الحسين الموصول بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم فهو «هو عبد القادر بن أحمد المشهور بين خدة بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر ابن إدريس الأكبر بن عبد الله المحصن بن حسن المتني بن حسن البسط بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء بن سيد الوجود محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»⁽¹⁾. وقد كانت أسرة الأمير عبد القادر الجزائري تعتز بامتداد نسبهم إلى جذور الرسول صلى الله عليه وسلم.

مولده ونشأته:

«ولد الأمير عبد القادر الجزائري يوم الجمعة، في الثالث والعشرين من رجب سنة اثنين وعشرين ومائتين وألف للهجرة (1222هـ)، الموافق لشهر أيار سنة سبعة وثمانمائة وألف للميلاد (1807م)، وقد أجمع على ذلك معظم الدارسين الذين أرنحوا قديما وحديثا لحياته، كالأمير محمد ولده، وتشرشل والبيطار (...) أما مكان ولادته ففي قرية القيطنة»⁽²⁾.

(1) - علي بن محمد الصلابي: الأمير عبد القادر الجزائري قائد رباني ومجاهد إسلامي، دار الألوكة، لبنان، د ط، د س، ص 100.

(2) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، وزارة الثقافة، الجزائر، د ط، 2007م، صص 32، 33.

لقد ولد الأمير وترى في جو عائلي مميز شجعه على تعلم القراءة والكتابة، والإقبال على حفظ القرآن الكريم في مرحلة مبكرة من عمره «ترى الأمير عبد القادر في حجر والده، الذي مال إليه ميلاً خاصاً فتعهد أمر تربيته بنفسه (...)» وفي الرابعة من عمره التحق عبد القادر بمدرسة والده في القيطننة وبدأت ملكات الولد العقلية تظهر لتدل على نبوغه (...) وقد بذل محي الدين قصارى جهده في تثقيف ولده، لما أنس فيه من إمارات التفوق والذكاء، فتمكن الفتى في مدة وجيزة من اكتساب جانب عظيم من العلم، وحفظ القرآن حفظاً جيداً، وكان على حداثة سنه يدرك مدارك الرجال برؤية نادرة المثال⁽¹⁾.

لعل التنشئة التي ترى في كنفها الأمير عبد القادر كانت المحفز الرئيسي في نبوغ الأمير وتجاوزه أبناء عمره في حدة ذكائه وسعة علمه ومعرفته «وكان في مبدأ صباه يشب شباباً لم يشبه أهل زمانه، ومنذ كان في حال طفولته يافعا يتخلق بالأخلاق الجميلة والأوصاف النبيلة، إلى أن عقد القوى فأستجمع خصال الكبار المكلفين من أحوال دينية كالمجاهدة في تعلم دعائم الإسلام من صلاة وصوم بعد الإطلاع على كلمة التوحيد»².

وظل الأمير تحت رعاية والده إلى أن بلغ سن الرابع عشرة سنة عندما أرسله والده إلى الشيخ أحمد بن حوجة ليشرف عليه فتكفل بتلقيه مختلف العلوم والفنون والآداب، وبعد أن تلقن من العلوم أحسنها ومن الآداب أجودها عاد إلى مسقط رأسه ليعمل هناك شيخاً «وأستطاع في هذه الفترة أن ينظم الشعر ومقاييسه، ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فن الشعر، وليس عجيباً أن يتفوق شخص كالأمير على أقرانه، فقد كان والده ينظر إليه بإكبار، فلا يقدم على عمل دون إشارته، ولا يحضر مناسبة إجتماعية أو سياسية إلا برفقته»⁽³⁾ ولعل فضل والد الأمير على ابنه كان السبب في كثير من المناصب التي تقلدها ابنه فكان سنده في

السراء والضراء، فقد تشارك الإقامة الجبرية في وهران معاً ثم غادرها لأداء فريضة الحج ماريين بتونس والإسكندرية

(1) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً، ص34.

(2) - عبد المجيد بيرم: مذكرات الأمير عبد القادر - سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849 تنشر لأول مرة -، تحقيق: محمد الصغير بناتي وآخرون، شركة دار الأمة، الجزائر، ط7، 2010م، ص50.

(3) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً، ص34.

وبعد أدائهما فريضة الحج توجهوا نحو دمشق وأقاما فيها، إن ما ميز رحلات الأمير في بلاد المشرق هو أخذه من علومهم وثقافتهم وآدابهم، فقد نهل وأخذ الكثير من علماء المشرق.

وفاته:

توفي الأمير عبد القادر «يوم الجمعة التاسع عشر من رجب سنة ألف وثمانمائة الموافق لليوم الرابع والعشرين من مايو سنة ألف وثمانمائة وثلاث وثمانين (...). وكانت وفاته بداره في "دمر" ثم نقل منها صباحا إلى دمشق ليحاور ظهر يوم السبت الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي على سفح جبل "فاسيون" بالصالحية يجمعهما ضريح واحد».⁽¹⁾

ثانيا: الجانب الأدبي عند الأمير عبد القادر

برز "الأمير عبد القادر الجزائري" كأعظم شخصيات التاريخ المعاصر للجزائر وغدا أدبه وفكره وحتى عقيدته نموذجا إنساني مثالي للبشرية، فالمتتبع لحياة "الأمير عبد القادر" يتصدر لديه أن الأمير مؤسس الدولة الجزائرية رجل حرب وسياسة محنك، ورغم ميوله السياسي إلى أنه برز في الأدب بقدر بروزه في الحرب فالأمير أديب وشاعر عظيم ومتمكن من الشعر إلى حد كبير.

لقد عايش "الأمير عبد القادر" فترة فاصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث حيث «عرفت النهضة طريقها إلى المجتمع الجزائري إلى مطلع العشرينات من هذا القرن، حيث برزت بوادر حركة وطنية وفكرية وسياسية حملت على عاتقها مهمة النهوض بالأمة»⁽²⁾ هذه الفترة التاريخية التي عايشها الأمير هي من أملت عليه توجهه الشعري والأدبي كأداة منه للنهوض بالأمة فحمل شعره فكرا ووعيا عميقا، فشعره كان وليد واقعه المعيشي ومواكبا لعصره مترجما لها في أعراض شعرية أهمها الفخر والتصوف فشعر الأمير عبد القادر كان فاتحة الشعر في الجزائر

⁽¹⁾ - محمد السيد محمد علي الوزير: الأمير عبد القادر الجزائري - ثقافته وأثرها في أدبه-، وزارة الثقافة، الجزائر، د ط، 2007م، ص15.

⁽²⁾ - محمد بن سميحة: النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر - مؤثراتها بدايتها مراحلها-، دون دار نشر، الجزائر، د س، ص77.

فشكل شعره منعرجا تاريخيا كما يعد إسهاما لا يستهان به في الكتابة الشعرية الحديثة ونتاجها الشعر أو أو نشري
ينجز عن ثقافة مميزة.

1- ثقافة الأمير ومصادرها

لقد كانت ثقافة الأمير عبد القادر نبعه الذي يستقي منه أفكاره ومستودعه الذي يخرج منه مكنوناته
بالبوح الشعري أو الأدبي «ولم أجد -ولو مثلا واحدا- لانقطاع الأمير عبد القادر عن مصدره الأساسيين وهما
معجزنا البيان من جهة والتراث ومعين العلوم والإلهام من جهة أخرى القرآن والسنة».⁽¹⁾

فقد تميز الأمير عبد القادر بثقافة مبنية على اللغة العربية الفصحى وقواعدها مما أكسبه ملكة في اللغة
جعلت لديه طلاقة في القول الأدبي والحديث والسنة يبرز تعلق الأمير بتعاليم الدين الإسلامي الذي سعى إلى
تطبيقها والعمل بها، حيث أنه حافظ للقرآن الكريم وله سعة من الفقه تجعله يطرق أي موضوع فكري بالبحث
والجدال والنقد فيتناقش فيه بكل أريحية فنتج عن هذا ثقافة منفردة لدى الأمير عبد القادر ميزته عن عاصروه.

«والخلاصة أن عبد القادر رفع على بغيته، وشقى غلته وأشبع نحمه عن القرآن والحديث وأحاط بأسباب تطلعه
وتحققه من وراثته ودراسة كل ما تشتهي الأنفس، وتطمح إليه الرغاب فرأى رأيه هذا لأسباب قرآنية وإلهامية ولغوية
وتواترا عن قوم سبقوه على الطريق»⁽²⁾، وهذا راجع إلى تنشئة العربية الإسلامية فالأمير وجد ضالته في التنزيل

العزیز وجعله قانونه الذي ينهل منه قوته وأعتبرها المؤرخون جهادا آخر للأمير عبد القادر. «وقد اتضح أن للأمير
جهادا آخر في ميدان التعلم والتعليم وحماية التراث من العدو أو الخروج عليه، وأنه قام لتجلية هذا التراث وتدور
ما يراه واقعا من الإنميا والضياع، ودافعا لمعاودة التقدم، والمؤاخاة بينه وبين ما يناسبه من مظاهر الحضارة في عهد

النهضة الأوروبية دون انبهار ساحق بها، ولا غفلة جاهلة أو كبرياء عامية عنها».⁽³⁾

(1) - محمد السيد محمد علي الوزير: الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في آدابه، ص82.

(2) - المرجع نفسه، ص86.

(3) - المرجع نفسه، ص92.

2- ديوان الأمير عبد القادر: لقد تراوحت أعمال الأمير عبد القادر بين شعر ونثر وبرز في كلا منهما إلا أن الأمير يجد ضالته في قول الشعر بدرجة كبيرة، فقد كانت له مؤلفات نثرية أهمها مذكرات الأمير والمقراض الحاد وذكرى الغافل وتنبيه العاقل تعالج أغلبها أموراً فكرية أما شعره فقد جمع في ديوانه حيث «كان الأمير عبد القادر قد نظم معظم قصائد الديوان المختلفة في مهجره وقد قام بطبعه أول مرة ولده (الأمير محمد) صاحب كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ثم قام بتحقيقه بعده»⁽¹⁾ وطبعه الدكتور ممدوح حقي سنة 1960م ثم قام بتحقيقه وطبعه مؤخرًا الدكتور زكريا صيام، فديوان الأمير قد جمع أشعاره وأهم ما كتب في مجال الشعر لكنه «لم ينظم دفعة واحدة في فترة زمنية معينة ولا في بقعة جغرافية معينة، بل نظم على فترات متقطعة فقد رافق حياة الأمير منذ شبابه في أرض الجزائر إلى وفاته في دمشق»⁽²⁾ فديوان الأمير عبد القادر لم يكتب دفعة واحدة وذلك راجع لظروف التي عاشها الأمير وتنقله الدائم بين الواجب الوطني وأغراض شخصية كالحج مثلاً، وأخرى في المنفى، إلا أن ديوان الأمير عبد القادر تداول على تحقيقه عدة كتاب ولعل أحدث نسخة منه نسخة العربي دحو عام 2007م.

اعتمد "العربي دحو" في تحقيقه على 7 مصادر ومراجع عدد صفحاته 149 صفحة ويحتوي على

فهرس للأعلام وفهرس للأماكن وقد جعل فهرس القصائد كالتالي:

إنه يذكر في كل مطلع قصيدة موضوعها ويذكر قافيتها، ثم البحر الشعري وصولاً إلى الصفحة مبرزاً محاور

أربعة بارزة غلبت على الديوان الشعري: المحور الغزلي - المحور الجهادي - المحور الروحي - المحور الإخواني.⁽³⁾

فقد كانت الكتابات الشعرية عند الأمير عبد القادر تبعا لميولات شخصية، هذا ما يعلل بروز أغراض

شعرية عن أخرى وأحياناً تكون نتيجة لمناسبات معينة تستلهم الأمير لقول الشعر.

(1) - محمد بن سميعة: النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر، ص 82.

(2) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفاً وشاعراً، ص 88.

(3) - ينظر: سليمان عشراقي: الأمير عبد القادر الشاعر: مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري، دار الغرب للنشر، الجزائر، ط 3، 2009، ص 118.

3- الأغراض الشعرية عند الأمير عبد القادر

لقد تعددت الأغراض الشعرية في شعر الأمير عبد القادر، فنجده برز في غرض شعري على حساب غرض آخر، إلا أن الشعر كان لصيقاً بالأمير في كل مناسبات حياته مؤرخاً لمحطات خالدة في مسيرته، ولعل التباين في الطرح الشعري لدى الأمير بين مفتخر ومتصوفاً راجع لأسباب وعوامل يمكن توضيحها وإرجاعها إلى أسبابها الحقيقية.

أ- الفخر والحماسة:

برزت عزّة النفس عند الأمير وميله هذا للفخر وتباهيه بأصله وانتمائه العربي ناتجاً عن بطولاته فقد داع صيته كشاعر ورجل حرب، هذا ما جعل لديه حافزاً لصقل هذا الغرض الشعري فظهر جلياً في أشعاره، فالأمير افتخر بنسبه وأصله ودينه وفتخر بفروسيته وشجاعته شأن الشاعر العربي فالفخر أبرز أغراض الشعر العربي لاسيما عند الأمير عبد القادر.

والملاحظ على شعر الفخر عند الأمير أنه منقسماً إلى شقين الفخر الفطري الطبيعي وينتج أساساً نسبة الشريف الذي يرجع إلى رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، فهو عربي بن عربي من أصل شريف وعريق حتى أن الأمير أنشد أبياتاً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:

أبوناً رسول الله خيرُ الورى طراً ** فمن في الورى يبغى يطاولنا قدرًا

ولانا غداً ديناً وفرضاً محتمماً ** على كل ذي لبٍّ به يأمنُ الغدرا

أما الفخر الإرادي المكتسب فهو ناتج عن اعتداده بنفسه وضرب من عزّة النفس وشعور القوة والزعامة عند الأمير على غرار أخلاقه ومواقفه الحماسية فسيرة الأبطال التي حفل بها الأمير من بطولة وفروسية وقدرة على الجهاد

وخوض غمار الحروب وهو لها، ورغم هذا لم يتخلى عن أخلاقه وشهامته وإنسانيته مما ولد لديه شعورًا بالنعوة والعزة حملها شعره في قالب فخري واضح.⁽¹⁾

ب- التصوف:

أثرى جانب التصوف من حياة الأمير عبد القادر شعر الأمير وأعطاه نفساً وموضوعاً جديداً ومنهجاً دعم شعره وجعله يطرق موضوعاً حديثاً كان سائداً في فترة حياته، فرغم أن الأمير كان دائم الانشغال بالحرب وأمور السياسة، إلا أنه كان يحنل بجانب إنساني واجتماعي قائم على التعبد والسير على الشريعة الإسلامية وقد جاءت هذه التجربة الشعرية الصوفية لتبرز ثقافته العربية الإسلامية وتمسكه بمعالم الدين فعرف التصوف طريقه إلى قلب الأمير بالتأمل والتدبر في الدين والعزلة والاختلاء بالعبادة «لقد تعمقت نزعة التصوف في نفسه أثناء سجنه بفرنسا وأصبحت غالبية عليه عند تحوله إلى دمشق وتفرغه لمطالعة كتب الصوفية، وقد كانت إقامته بالحجاز مدة سنة ونصف نقطة تحول حاسمة في سلوك الأمير عبد القادر التصوفي، فانكب على العبادة بعمق الإيمان»⁽²⁾ فبرز عند الأمير المنحى الصوفي في شعره وميله إلى الزهد والتهجد ومن أبرز النماذج الصوفية في شعر الأمير قصيدته "أستاذي الصوفي".

«فالتصوف عند الأمير هو جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادة الخالصة لله والحضور الدائم مع الله»⁽³⁾ فالأمير ورغم التزاماته العديدة لم يهمل صلته بخالقه حتى أنشد قصائد في التصوف وثقت علاقته بخالقه وزادت من ترابط أفراد قوميته.

⁽¹⁾ - ينظر: عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، د ط، 2000م، صص 70، 71 و 77.

⁽²⁾ - ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، د ط، 2000م، ص 186.

⁽³⁾ - عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص 96.

ج- الوصف:

الوصف هو الأرضية التي يبني عليها الشاعر شعره، عند افتخاره يصف خصاله وحين يرثي يصف وعندما يتغزل يصف، وقد أخذ الوصف نصيبه عند الأمير في تطرقه لقصيدته عن البداوة فقد وصف البادية، كما وصف الحاضرة فبرز عنده منحيين من الوصف.

الوصف البدوي برز في قصيدته "ما في البداوة من عيب" فوصف الأمير حياة البادية وأحاطها من كل جانب، فالأمير عاش في البادية وقد برز هذا في تمكنه من وصف البادية وعد فضائلها بصدق ووعي ناتج عن تجربة حقيقية عاشها الأمير، أما الوصف الحضري فاختص بمرحلة استقرار الأمير في دمشق حيث إبتعد عن حياة البادية وعاش في الحواضر فبرز هذا في إطار وصف حسي تقريرى ووصف تشخيصي وجداني.⁽¹⁾

- موقف النقاد والدارسين في شعر وثقافة الأمير:

يعتبر شعر الأمير كمرحلة فاصلة بين الشعر القديم والحديث، عرفت بعصر النهضة، فقد حمل شعر الأمير عبد القادر وثقافته اتجاهات متعددة تحمل أهدافا إيديولوجية مهمة حيث لا نجد منه منكباً على ذاته يبرز دواخلها ويناجيها بل كان لسان حال قوميته العربية قال "زكريا صيام" «لم تكن شخصية الأمير ذات جانب سياسي أو عسكري أو اجتماعي أو علمي فقط، ولكنها كانت هؤلاء جميعاً وأضاف أن الأمير عبد القادر (...) له سعة في أفقه الفني والتاريخي والديني والاجتماعي أتاحت له تجربة رائدة جعلته يقف في طليعة الشعراء».⁽²⁾

فشعر الأمير كان تلبية حاجات عصره والظروف التي عاشتها الجزائر حيث يقول "بشير بويجرة" «شاعرية الأمير عبد القادر تمثل مقاربة مع كل ما كان متوافراً في عصره نقلة حادة ورؤية واعية بالميكانيزم الشعري والموحية بضرورة ربط البوح الشعري بمسوغات العصر المساوغ لهذا البوح من أجل تجاوز أسانة الراهن وجاهزية المتداول

(1) - ينظر: عبد الرزاق بن السبيع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، صص 111، 113 و 118.

(2) - الأميرة بديدة الحسيني الجزائري: الأمير عبد القادر حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحرير، دار المعرفة، ط2، الجزائر، 2008م، ص323.

ورتابة الكينونة»⁽¹⁾ وتؤكد معظم الدراسات أن الشعر العربي مر قبل مرحلة الحداثة بمرحلة تسمى مرحلة الإحياء والبعث فقد أكد "بشير بويجرة" أسبقية وأحقية الأمير بلقب رائد الشعر العربي والمغربي لأن حياته كانت مرحلة فاصلة بين العصر القديم والحديث.

فالأمير عبد القادر كان إحيائيا لروح وشكل القصيدة العربية القديمة وكان معاصرا لواقعه، ولكن لم يكن ذلك الإحياء بنفس المواصفات والخصوصيات الموضوعاتية والفنية التي انبجلت بها القصيدة العربية القديمة⁽²⁾، فالأمير عبد القادر دائم الارتباط بالتراث الشعري العربي في معانيه واستعمال اللغة الشعرية خاصة أساسها المعجم اللغوي القديم، مع إضفاء شعرية خاصة على المدلولات التي طبعت الشعر العربي الأصيل «إلا أن قصائد الأمير جاءت إحيائية تضع القارئ بلا وناء في جو الشعرية العباسية والأموية والأندلسية ولو أخذنا شاهدا واحدا وهو قصيدته ما في البداوة من عيب فبعض سياقات القصيدة نفسها تتقاطع مع بعض الشعراء ممن عاصروه وهو مصطفى دحو يقول:

يا غافلاً عن أمور زانها ذهب * * ولونها لجينٌ وتمرها رطبٌ

ونورها مضيءٌ وجوّها دائمٌ * * وصوتها منشدٌ بالحسن مرتقبٌ»⁽³⁾

إلا أن الأمير تميز عن غيره في التجديد في الموضوعات الشعرية بطرح موضوعات فكرية «وقد تطرق الأمير في شعره إلى أكثر الفنون الشعرية المعروفة في عصره، وقد ارتبطت كل مرحلة تاريخية من مراحل حياة الأمير بفن معين من الفنون الشعرية، ف شعر الفخر والحماسة مثلا أوثق صلة بحياة الأمير من شعر الوصف، وما ذلك إلا لأن

(1) - محمد بشير بويجرة ، الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، ص213، 214.

(2) - ينظر: محمد بشير بويجرة ، الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، ص242.

(3) - سليمان عشراقي: الأمير عبد القادر الشاعر: مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري، ص108، 109.

شعره في الفخر والحماسة كان نتيجة معاناته في الحروب وخبرته التحريبية الحربية»⁽¹⁾ كل هذه الآراء إنما تدل على

شاعرية الأمير وتمكنه من قول الشعر.

⁽¹⁾ - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 185.

II: شعرية البداوة في شعر الأمير عبد القادر

أولا- شعرية البناء الفني في شعر الأمير عبد القادر

الملاحظ أن أغلب قصائد الأمير عبد القادر لم تغلب عليها ملامح البداوة في إستحضار جانب معين من جوانب التراث الشعري العربي، وقد اتكأ عليه معجما وتراكيبا وإيقاع وهذا ما سنفصل الحديث فيه:

1) شعرية اللغة عند الأمير:

تعد اللغة أهم عنصر في العمل الأدبي، هذه اللغة تكون مرتبطة أكثر بالسياق الذي قيلت فيه، أكثر من ارتباطها بالمفردات فقط، لأن لغة الشعر تختلف عن لغة الحياة، ولأن إبداع الشاعر وتفردته وقدرته على توظيف هذه اللغة تكمن في طريقة توظيفها في سياقات ملائمة وحديثة ترتبط به دون غيره، فلكل شاعر تجربته الشعرية الخاصة، فاللغة إذن هي مادة كل تجربة شعرية، «إن التجربة الشعرية تجربة لغة، وأن أولى مميزات الشعر استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائية فاللغة مفردات وتراكيب، تأخذ في الشعر وضعاً خاصاً، بل إن شاعراً يكون له بالضرورة تعامله الخاص مع اللغة، ولهذا فإن قدرة الشاعر ليست في اختيار اللفظ وإنما في قدرته على توظيفه وحسن استعماله حقاً، فالألفاظ لا قيمة لها في ذاتها لأنها شيء مشترك بين الناس وإنما العبرة بطريقة توظيفها شعرياً، كما تظهر مهارة الشاعر أيضاً في تشكيل هذه الألفاظ في القصيدة».⁽¹⁾

ونظراً لهذه الأهمية التي تكتسبها اللغة ودورها في تحديد العمل الأدبي، إرتأينا أن نقف عند هذا الجانب في

شعر الأمير لنكشف عن خصائص لغة شاعرنا.

عند تتبعنا للظواهر اللغوية في شعر الأمير يظهر لنا الجانب الجلي في تراث شاعرنا كدافع ذاتي راسخ في

كيان الأمير ودوافع موضوعية أخرى «وهكذا نرى أن أغلب ألفاظ الأمير لغة مستمدة من التراث الأدبي القديم

⁽¹⁾ -وسيلة مرياح: شعر الأمير عبد القادر- الرؤية والأداة، شهادة دكتوراه العلوم، إشراف: حسن كاتب، جامعة قسنطينة 1، الجزائر، 2005م/2006م،

يستقيها الشاعر من ذلك المعنى الثقافي، وقد كان في إمكان الأمير أن يبعث الحياة في اللفظة القديمة بإدخالها في الجملة الشعرية بتوظيفها توظيفا فنيا، ذلك أن الشاعر الأصيل والمبدع معا هو الذي يستثمر اللغة أيا كانت ألفاظها ومفرداتها قديمة أو حديثة، ومقياس البراعة والإجادة لا يتعلق بالمفردات اللغوية في حد ذاتها، بقدر ما يتعلق بالجملة الشعرية و بجو القصيدة معا»⁽¹⁾.

يمكن القول بأن المعجم اللغوي الذي بنى عليه الأمير عبد القادر شعره، كان معجما لغويا قديما، لأن أذن الشاعر تربت عليه، وهذا لا يعني بأن الأمير أخذ المبنى والمعنى نفسه بل أن شاعرية الأمير كانت طاغية على شعره.

ولعل حياة الأمير عبد القادر في البيئة البدوية أثرت كثيرا في تحديد معالم صياغته الشعرية، وقد يتبادر إلى أذهان القراء انه كان يستعمل نفس اللغة الشعرية للشعراء الذين سبقوه، لكن المتصفح لأشعار الأمير يجده متفردا في عباراته فقد تميز بحسن انتقائها وتوظيف المعاني ومرونتها وقدرة التجانس والدقة في تصوير الكلمات وإعطائها دلالة إيجابية هذا ما جعل من شعر الأمير متينا التراكيب وسلس الأسلوب دقيق الوصف، فنجده يستعين بعبارات قوية دون الإهتمام بفصاحة اللفظة وجزالتها «إن إعجاب شاعرنا بالنماذج العربية القديمة جعله يحتذي الأساليب البيانية المشهورة فاقصر على التراكيب الجاهزة (...)» ولعل مرد ذلك إلى اعتزازه بترائه العربي الأصيل، فنراه يستخدم تراكيب متنوعة من بيئة أجداده العرب مثل قوله: تجلى، النقع، ظهر جردبل، ثار النقع(...) فأغلب تراكيبه وألفاظه مستقاة من الموروث الشعري القديم»⁽²⁾.

ورغم ميل الأمير عبد القادر إلى استعمال معجم لغوي تقليدي في غالب قصائده إلا أن قدرته في انتقاءه ألفاظ مناسبة وملائمة لشعره؛ بالإضافة إلى قدرته الهائلة على توزيع وتوظيف العبارات توظيفا محكما من خلال حسن الصياغة وسلاسة الربط بين اللفظ ومعناه دون المبالغة في الزخرفات اللفظية .

(1) - عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، صص 299، 300.

(2) - المرجع نفسه، ص 292 .

لقد تميز شعر الأمير عبد القادر بخصائص لغوية وظواهر أسلوبية بصمت خطابه الشعري بسمات جمالية متفردة، وقد يجد القارئ اختلافا في توزع هذه الظواهر اللغوية بين قصيدة وأخرى، فنجد أن بعض هذه الظواهر كان ملازما لأسلوب الشاعر وبعضها كان يوظفه حسب البنية الإيقاعية للقصيدة وموضوعها، وعن الظواهر اللغوية التي وظفها الشاعر في النص الشعري "ما في البداوة من عيب"، نجد وظف ظاهري التضاد والتكرار :

أ- التضاد:

إن النص الشعري الذي نسعى إلى تفحص بنائه اللغوي يسفر عن موقف حضاري انتمائي للأمير، وعلى هذا الأساس تبلور الرؤية الشعرية انطلاقا من صوت النداء، الذي يؤسس لانطلاق تلك الرؤية التي تخاطب الآخر.⁽¹⁾ يقول الأمير عبد القادر:

يا عاذراً لا مريءٍ قد هامَ في الحضرِ ** وعاذلاً تُحِبُّ البدوِ والقفرِ

لا تَدُمَنَّ بيوتاً قد خفَّ حملُها ** وتمدحَنَّ بيوتَ الطينِ والحجرِ!

لو كنتَ تعلمُ ما في البدوِ تعذرني ** لكن جهلتَ وكم في الجهلِ من ضررٍ!⁽²⁾

بدأ الأمير عبد القادر قصيدته بأسلوب النداء، وقد جاء به كتنبيه للآخر الذي يجهل جمال الحياة في البادية، ونجد بأن أسلوب النداء يتوافق بشكل كبير مع التضاد، وهذا ما يفسر جمعهما (النداء والتضاد) في بيت واحد «بني هذا المقطع على سيميائية المقابلة إذ يتعارض المكون الدلالي المؤسس على المعطى السيميائي (هام الحضر)، مع المكون الدلالي الدلالي المؤسس على المعطى السيميائي (محب البدو والقفر)، وتحمل بنية التضاد هنا رؤية شعرية تصنع إستراتيجية وجودية، تنبع أساسا من فكرة الإنتماء إلى خصوصية حضارية عربية (...). وتتحرك الدلالة العامة لهذه البنية وفق تحولات تصنع التضاد في نسق بنائي يعزز فكرة الوجود والإنتماء».⁽³⁾

⁽¹⁾ -محاضرة حركة الإحياء الشعري المغاربي، ص 14. الموقع الإلكتروني: Msila. Dz. virtuelcamous. univ- 25-05-2019م. (PDF)

⁽²⁾ - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 50.

⁽³⁾ - محاضرة حركة الإحياء الشعري المغاربي، ص 15.

وليعزيز الأمير عبد القادر فكرة التضاد الموجود بين البادية والحضر، جاء في أبيات لاحقة وتحدث بأسلوب إغرائي عن روعة الحياة في البادية. يقول:

ولو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً ** بساط رملٍ به الحصباء كالدرر
أو جُلت في روضةٍ قد راق منظرها ** بكل لونٍ جميلٍ شيقٍ عطرٍ
تستنشقُ نسيماً طاب منشقاً ** يزيد في الروح لم يمرر على قذر⁽¹⁾

«ولعل تلك المغريات البدوية يؤسسها حرف الشرط (لو)، وهو حرف يبرز تفوق الخصوصية المترسخة في ذهنية الأمير عبد القادر (...) وتتناسق مكونات البيئة لتضع مشهداً جمالياً واقع النسيج بهي المنظر تتناغم فيه الصحراء الجافة مع الروضة اليانعة مع النهار الواضح، من أجل أن تعزز بنية التضاد على مستوى الرؤيوي»⁽²⁾.
لأن قصيدة "ما في البداوة من عيب" بنيت على معطى المقابلة وإبراز التضاد والاختلاف بين الموجود بين الحياة في البادية والحضر، لقد حرص الأمير عبد القادر على انتقاء مفرداته بعناية فائقة، فنجدته ركز على استعمال الطباق في مواطن كثيرة في القصيدة كقوله:

عاذراً ≠ عاذلاً، تدمن ≠ تمدحن، بيوت خف محملها ≠ بيوت الطين والحجر، تعلم ≠ جهلت،
البدو ≠ الحضر.

كما اعتمد الأمير أيضاً على أسلوب الفخر والمدح في إبراز التضاد الموجود بين الحياة في البادية والحضر فنجدته في أغلب أبيات القصيدة يمدح عيشة أهل البادية ويفتخر بانتمائه لهم، وخير ما ختم به الأمير عبد القادر قصيدته هو تفضيله حياة البادية ذاكرة محاسنها وبأنها لا تعاب عكس الحضر:

ما في البداوة من عيبٍ تُدَمُّ به ** إلا المروءة والإحسانُ بالبدر
وصحةُ الجسم فيها غيرُ خافيةٍ ** والعيبُ والداءُ مقصورٌ على الحضر

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 50.

(2) - محاضرة حركية الإحياء الشعري المغربي، ص 16.

من لم يمّث عندنا بالطّعنِ عاش مدى ** فنحنُ أطولُ خلقِ الله في العُمُرِ⁽¹⁾

لقد بنى الأمير عبد القادر هذه القصيدة على المقابلة بين الحسن في البادية ونقيضه في الحضرة فخلق جو بدوي بامتياز من خلال لغة القصيدة، وهذا ما يبرز لنا قدرات الشاعر في التعامل مع اللغة لما يتلائم مع موضوع القصيدة يقول الأمير عبد القادر:

سفائنُ البرِّ بل أنجى لراكبها ** سفائنُ البحرِ كم فيها من الخطرِ!!²

هنا استعمل الأمير التضاد بالكناية (سفائن البر كناية عن الإبل) (سفائن البحر) وهو نوع من التلاعب باللغة ما أضفى جمالية خاصة على النص الشعري، إضافة إلى تعزيز تفوق البادية عن الحضرة.

ب- التكرار:

التكرار ظاهرة عرفها الشعر العربي القديم وتداولها النقاد القدماء «إلا أنه لم يكن من الأساليب الأساسية للقصيدة العربية القديمة أما في القصيدة العربية الحديثة والمعاصرة فقد أصبح مدار اهتمام الشعراء، وعد أحد أبرز وسائل التناسق النصي، وطاقة كبرى في توليد المعنى وتكثيفه، ووسيلة هامة في التعبير والتصوير»⁽³⁾ لأن الأمير عبد القادر كان شاعراً من الشعراء المعاصرين كان لزاماً عليه أن يتأثر بروح العصر وما بثه في الشعر العربي من ملامح جديدة كان التكرار واحداً منها.

فقد ميزت ظاهرة التكرار أسلوب وشعر الأمير عبد القادر لأن التكرار من العناصر المعتمدة لإبراز وتقوية الجانب المعنوي والجانب الموسيقي والجمالي في الشعر ونجد ظاهرة التكرار واضحة جلية في قصيدة الأمير عبد القادر "ما في البداوة من عيب" في محاولة من الشاعر لتأكيد على قيمة وأهمية الشيء المكرر، ونجد الأمير ينوع في التكرار، بين تكرار اللفظ أو تكرار المعنى كلفظة البدو مثلاً التي كررها لمرات عديدة ولفظة خيل، إن تكرار الأمير

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 51.

(2) - المصدر نفسه، ص 51.

(3) - وسيلة مرياح: شعر الأمير عبد القادر-الرؤية والأداة، ص 206.

لهذه اللفظتين لمرات عديدة لم يكن صدفة وسهوا منه، وإنما كان على دراية تامة بما سيتركها هذا التكرار من أثر في نفوس المتلقين، فقد حاول أن يصب اهتمام القارئ وأن يشده إليه من خلال تكرار بعض الألفاظ القوية التراكيب المرتبطة إرتباطا وثيقا بموضوع القصيدة.

فنجد الأمير مثلا وظف لفظة خيل في سياقات مختلفة، وهو ما يبرز لنا شاعرية الأمير وقدرته على التلاعب باللغة، يقول واصفا الخيل في مواضع متفرقة:

ونحن فوق جياذ الخيل نركضها ** شليلها زينهُ الأكفالِ والخصرِ

لنا المهارى وما للريم سرعتها ** بها والخيل لنا كل مفتخرِ

فخيّلنا دائما للحرب مسرّجةً ** من استغاث بنا بشرّه بالظفر⁽¹⁾

فالأمير هنا ربط الخيل بالبيئة البدوية كما ربطها أيضا بالشجاعة والفروسية وأهل البادية، ولعل نية الأمير

هنا لم تكن الإفصاح عن قدراته الشعرية في توظيف نفس اللفظة في سياقات مختلفة بقدر ما كان همه المحاجة بأفضلية البادية على الحضر.

ونجد التكرار الضمني في مواطن أخرى كثيرة في نص القصيدة، ولعل تكرار الأمير للألفاظ والمعاني كان للبرهنة على قيمتها، وفي هذه الأبيات نجد نوعا من الفخر بالشجاعة في مطاردة الفريسة، فقد كرر صفة الشجاعة في أبيات عديدة كقوله:

تُباكرُ الصيدَ أحيانا فنبغته ** فالصيدُ منّا مدى الأوقاتِ في ذكرِ

نُطارِدُ الوحشَ والغزلانَ نلحقها ** على البعاد وما تنجو من الضمر⁽²⁾

«لقد شكل التكرار في شعر الأمير عبد القادر ظاهرة أسلوبية بارزة، استطاعت أن تمنح النص خصوصية وتدعم دلالاته إذ أن وظيفة التكرار لا تقتصر على إحداث الأثر الصوتي في القصيدة، لكنه يسهم في تدعيم

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص51.

(2) - المصدر نفسه، ص51.

الدلالة وإبرازها وتوسيع نطاقها بحيث تتخذ آفاقا جديدة، فلا شك أن الوحدات المكررة تعني بتكرارها شيئا إضافيا عما عانته عند ظهورها للمرة الأولى كما أسهمت ظاهرة التكرار في إثراء جمالية نص الأمير الشعري وإبراز موقف الشاعر ورؤاه التي يريد تأكيدها من خلال الإلحاح على ألفاظ بعينها أو صيغة أو نسق لغوي معين»⁽¹⁾.

وخلاصة القول أننا رصدنا ظاهرتين أسلوبيتين ميزتا قصيدة "ما في البداوة من عيب" تتعلق الأولى بظاهرة التضاد والمقابلة باعتباره ركز كثيرا عليها في إبراز تفوق البادية على الحضر، وتتعلق الأخرى بظاهرة التكرار التي ركز عليها هي الأخرى لتلاؤمها مع غرض القصيدة، وأهميتها في التأثير على التلقي على المتلقي.

2- شعرية الإيقاع عند الأمير عبد القادر :

للموسيقى الشعرية دور كبير في بنية الخطاب الشعري، فالإيقاع* الشعري ناتج عن البحور الشعرية والروي والوزن فهذه العناصر هي من تحدد الدلالات وتخرج الشعر في أسلوب مميز، فقد نظم الأمير عبد القادر أشعاره وفقا لنظام العروض العربي وكتيف الأوزان بما يخدم شعره حول البادية، فالإيقاعات الموسيقية ميزة الشعر عن النثر وما يلفت انتباهنا على الشكل التقليدي من وزن وقافية، ونهجه سبل الأقدمين من خلال استعراضنا لديوان الأمير عبد القادر يستوقفنا توظيف الأمير لقصائده ومقطوعاته الشعرية على الأوزان الخليلية فالبحر الطويل والبسيط والوافر من أكثر البحور الشعرية استعمالا في شعر الأمير عبد القادر، ويرجع ذلك إلى سببين الأول مرده أن الأمير اتبع السلف في اختيار البحور التي ينظم عليها وحتى في نسبة شيوخ الأوزان، وقد احتل الطويل المرتبة الأولى من أشعار الأمير والسبب الثاني خصائص هذه البحور «فالطويل طويل النفس رحيب الصدر، وما يدل على سعته أنه أخذ من حلاوة الوافر دون انتشاره، ومن رقة الرمل دون لينه المفرط، ومن ترسل المتقارب المحض دون خفته

(1) - وسيلة مرياح : شعر الأمير عبد القادر-الرؤية والأداة ، ص213.

* الإيقاع: نقصد به موسيقى الشعر التقليدية وحتى تلك الحديثة المتمثلة في قصيدة التفعيلة التي كانت تعتمد على الجرس الموسيقي الخارجي وعلى تولي الوحدات الموسيقية أو النغمية ويدخل في هذا الباب الأوزان العروضية وما يرتبط به من قوافي وزحافات.

يصلح للأداء العاطفي سواء أكان ذلك في الغضب الثائر والحماسة أو في الرقة الغزلية والحنين»⁽¹⁾ فيقول الأمير متخيلاً الشدائد والأهوال وصابراً على المكاره:

رَكِبْنَا لِلْمَكَارِمِ كُلِّ هَوْلٍ ** وَخَضْنَا أَبْحَرًا وَ لَهَا زَجَالٌ⁽²⁾

واختيار هذا البحر راجع لقدرته على حمل أفعال الحركة والنشاط وقوة الإيقاع التي تتناسب مع روح الحماسة والفخر «فالأمير أكثر من استخدم الأوزان الثامة وهي الطويل (30) قصيدة والبسيط (10) قصائد قصائد والكامل (09) قصائد الوافر (08) قصائد والرمل قصيدتان، والمتقارب قصيدتان أما مجزوء الرمل فقد خصه بثلاث قصائد ولو أكثر منه الأمير لطرق خصائص التجديد»⁽³⁾. فقد أبرز الأمير تفوقه من خلال تنسيق البحور الشعرية مع الموضوعات المختلفة «فالطويل مثلاً يصلح لغالبية الموضوعات والأغراض، وهو أكثر البحور صلاحاً لتلك التي تتعلق بالحروب والأغراض الجليلة الشأن كمواقف المفاخرة لكثرة مقاطعه»⁽⁴⁾. فالجانب الصوتي لأي قصيدة يتركز على البحور الشعرية إضافة إلى القافية وحرف الراوي.

القافية وحرف الروي: تختص القافية بالإيقاع الموسيقي للشعر وهي: «مجموعة أصوات تُكوّن مقطعاً موسيقياً واحداً يتركز عليه الشاعر في البيت الواحد، فيكرره في نهايات أبيات القصيدة كلها مهما كان عددها»⁽⁵⁾.

فحرف الروي هو الذي يبنى عليه الشاعر قصيدته ولهذا يتوجب عليه حسن اختياره بحيث يكون سلساً حسن المخرج ويتناسب مع غرضه الشعري ويؤدي المعنى المواقف لقول الشاعر فالأمير وبالنظر إلى ترتيب قصائده

(1) -وسيلة مرياح: شعر الأمير عبد القادر الرؤية والأداة، ص 27.

(2) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 46.

(3) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفاً وشاعراً، ص 293، 295.

(4) - عفيف عبد الرحمان: الشعر وأيام الحرب في الشعر الجاهلي، ص 356.

(5) - عبد الرضا علي: موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1997، ص 161.

تبرز أن معظم حروف المهجاء جاءت رويًا وأبرزها هي: الراء واللام والبدال والنون والباء، أما أكثرها شيوعًا في شعر الأمير هي حرف الراء واللام⁽¹⁾.

وبالرجوع إلى علم الصوتيات نجد أن «حرف الراء من الحروف القديمة التي نطق بها الإنسان وقد يكون هذا راجع لكثرة استعمال الإنسان له عند احتكاكه بالطبيعة وهي من الحروف التي ظهرت في المرحلة الرعوية ويلحظ تشابهه مع الريش في شكله ومن معاني الراء التي اكتسبها العرب الخوف»⁽²⁾ فالخوف هنا يتناسب وحيوة البادية القائمة على ركب الأهوال وتخطيها وتصنع هبة البدوي لأنه لا يحول دون إنطلاق الأحاسيس والعواطف أو تقييدها «لأنه حرف يجمع بين الرخاوة والشدة، ويعرف في الدراسات اللغوية الحديثة بأنه حرف مائع»⁽³⁾ فالشدة في حرف الراء ساهمت في إنطلاق الصوت وانفجاره دون قيود وتخفيفه في مواضع أخرى فيتميز بالمرونة، إضافة إلى صفة الانطلاق «فقد اعتبر ابن جني أن الراء أقوى من اللام؟ فهو يحتاج إلى جهد عضلي، ولا شك أن العرب كانوا يستيحبون تفخيم الراءات المكسورة»⁽⁴⁾ إلى أن الأمير كيفّ حرف الراء في قصائده بتناسبها مع جو البادية «مخرج صوت الراء هو طرف اللسان المنحرف وهو مخرج صوت قريب من مخرجي اللام والنون إلى أن صفة التكرير التي استحوذها صوت الراء جعلته مميزًا عنهما»⁽⁵⁾ فقد كيفّ الأمير عبد القادر حرف الراء في الإحاطة بمجال البادية المفتوح وعبر عنه بالروي الذي يمتاز بالإنطلاق والتحرر للبدواة، حتى أن هذا الإنطلاق تعزز بسمة التكرير التي تميز حرف الراء حيث عند النطق به وكأنك تنطق برائين أو أكثر مما يزيد في صلابة التعبير وامتداد أفق الإستماع وسكون البادية وامتزاج مع جوهرية وقوة صوت المكان في البادية ودعمه الأمير في غالب الأحيان

(1) - ينظر: فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفاً و شاعراً، ص 300 .

(2) - مزور دليّة: سيميائية الحرف العربي قراءة في الشكل والدلالة، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص 272.

(3) - إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط 5، 1995م، ص 66.

(4) - المرجع نفسه، ص 67.

(5) - إبراهيم مصطفى رجب: البنية الصوتية ودلالاتها في شعر عبد الناصر صالح، إشراف: إبراهيم مصطفى رجب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2002م/2003م، ص 29.

بالتصريح؛ ليزيد من وضوح الروي وإعطاءه حقه في المخرج وأكثر فينتج عنه استحضار لجو البادية بالمقابل جمالية الإيقاع الموسيقي التي تزيد من شاعرية النص الشعري لدى الأمير.

فالروي الرائ كان له أثر واضحاً في جمالية شعر الأمير، فإذا كان الغرض يستوجب القوة والصلابة وجب على الشاعر إتباع جرس موسيقي يتلاءم ليعبر عن هذا فيحس القارئ أو المتلقي بأثر هذه النغمة فيتأكد المعنى وتطرب النفس. يقول الأمير:

وما كلُّ شهمٍ يدَّعي السَّبَقَ صادقٌ *
 إذا سيق للميدانِ بأنَّ له الحسْرُ
 وعند تجلِّي النقع يظهرُ من علًّا *
 ظهرَ جردبَلٍ ومن تحته حمر⁽¹⁾

فالروي هنا هو حرف الراء وباعتباره من الأصوات المجهورة يلقي في النفس شعوراً بالحماسة والفخر مع اختيار ألفاظ ذات إيقاع موسيقي واحد (حسر، حصر) مما يخلق انسجام بين الألفاظ والغرض الذي تؤديه في نفس المتلقي والملاحظ على قصائد الأمير أنه يتبع رويًا واحدًا من بداية القصيدة وكل قوافيه جاءت مطلقة ورويها متحرك ولا توجد لديه قوافي مقيدة أي ساكنة وهذا وإن دل فقد يدل على رجح الفخر والانتماء العربي الذي يجوز قلب الأمير عبد القادر، ومن أهم مزايا القوافي التي استعملها الأمير تقنية التصريح حيث قال :

يا عاذرًا لامرئٍ قد هام في الحضر *
 وعاذلاً لمحّب البدو والقفر

وفي قصيدة أخرى :

لنا في كل مكرمةٍ مجالٌ *
 وما فوق السّمك لنا رجالٌ⁽²⁾

حيث جاء التصريح في نهاية الشطر الأول و نهاية الشطر الثاني من كل بيت: الحَضْرِ والقَفْرِ، مجالٌ ورجالٌ

«ما يزيد قصائد الشاعر إيقاعاً موسيقياً وتنغيمياً هو امتداد هذا التصريح ليشمل عمق النص متجاوزاً بذلك مطلعته فبعث فيه بين الحين والآخر شحنات موسيقية على شكل موجات تتلوها موجات تحمل في ثناياها

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 109.

(2) - المصدر نفسه، صص 46، 50.

دلالات ومقاصد يريد الشاعر إبلاغها بواسطة أنغام موسيقية تشد سمع القارئ وفكره⁽¹⁾ فالأمير عبد القادر اعتنى بقوافيه مبرزاً تفوقه في اختيارها فقد فضل الأمير الحروف المجهورة لتكون كقافية لقصائده، كما فضل بحورا عن أخرى لكن المؤكد أن الأمير استطاع أن يخلف انسجاما بين تكرار الإيقاعات الموسيقية وجعلها خادمة لغرضه الشعري ومعبرا عن أحاسيسه وبالتالي تستسيغ لها الآذان لا محال.

فالأمير إذن استطاع أن يستحضر الشعر العربي الذي تتلمذ عليه الشاعر في تجربته الشعرية، من خلال اللغة والتراكيب وإدراجها في إيقاعات عربية خليلية أصيلة، حيث استطاع أن يجمع بين اللغة والإيقاع المناسبين في رسم صورة البادية.

ثانيا: شعرية الأمير عبد القادر في تصوير البادية

1- شعرية الأمير في تصوير الجانب المادي:

نتجت البداوة كمنط حياة يختص به البدو في إطار بيئة بدوية تحمل موجودات مادية وقيما وسلوكات معنوية تشكل العناصر البارزة التي ترتبط بها إما ارتباطا وتعد البيئة أهم محرك لها والطبيعة القاسية أهم عوامل ظهورها، فظهرت البداوة كاتجاه واضح في شعر الأمير عبد القادر، عبر عنها وأحاطها بالوصف كما افتخر بها وعدد مناقبها وعناصرها مثبتا بذلك أصالته وانتماءه العربي والبدوي الأصيل.

أ- البيئة البدوية: تضم البيئة البدوية مجموعة عناصر مادية تشكل وجودها وهي في أغلب حالاتها تدل على الصحاري والمفازات والمسالك الوعرة والطبيعة القاسية، وعلى حياة قائمة على تربية المواشي والترحال وعدم الاستقرار.

- الصحراء: الصحراء مجال مفتوح لتتنقل البدوي وترحاله بحثا عن رزقه واستجابة لشغفه الدائم بالترحال وعدم الاستقرار في مكان واحد، وتبرز شاعرية الأمير ومقدرته ومدى سعة خياله في تصوير جمال الصحراء في إطار

(1) - وسيلة مرياح : شعر الأمير عبد القادر الرؤبة والأداة ، ص 283 .

التفضيل بين البدو والحضر، فالأمير أبرز رونق الصحراء وميزاتها والخلفية الروحية في تصويرها فنرى أنه يورد لنا صوراً عن الصحراء الواحدة تلو الأخرى فيقول:

ولو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً	**	بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جُلت في روضةٍ قد راق منظرها	**	بكل لونٍ جميلٍ شيتّ عطر
تستنشقُ نسيماً طاب منشقاً	**	يزيد في الروح، لم يمرر على قدر
أو كنت في صبحٍ ليلٍ هاج هاتنه	**	علوت في مرقبٍ، أو جلت بالنظر ⁽¹⁾

لقد جاءت هذه الأبيات لتصوير المكان والتعبير عنه بشاعرية عالية أساسها التضاد بين الحاضرة والبادية فوصف الصحراء وأحاطها بالوصف، تشكل فيها الصحراء اللفظة الأساسية في هذا الطرح الشعري فنسب الجمال والنقاء والصحية إلى البيئة الصحراوية البدوية، والكدر والتلوث نسبه للحاضرة مستعملاً معجماً خاصاً نسبه للصحراء (مرتقياً دلالة على بعد النظر والامتداد)، ويستنشق دلالة على الصفاء وعلوت دلالة على الشساعة إضافة إلى لفظة الصحراء والنسيم، الروح والنظر.

فالصحراء بمكوناتها أخرجها الأمير عبد القادر في قالب وصفي أساسه بالتشبيه باعتماد الروض والألوان والهواء والطيف الصافي والليل المطر (هاتنه) بالإشادة ببعده النظر والمناطق العالية فيخلق الشاعر من خلال هذه اللغة صحراءاً شاعرية تلامس الخيال وتفوق الواقع الحقيقي للصحراء، مما يبرز براعة الشاعر في إبداعه اللغوي فينتقل بالقارئ إلى جو بصحراء مغايرة لوجودها الحقيقي.

وهذا ما يحيل على فضاء واسع تنشرح له النفس تتناغم فيه الصحراء في صورة شاعرية تخاطب الجانب الروحي للمتلقى بالأساس «ويحاول شاعرنا تقليد امرئ القيس في تمدّحه بطي الفياني والمفاوز في محاكاته لصورة

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 50.

ذئب الوادي الذي قطعه امرئ القيس الذي يعوي من فرط الجوع كالمقامر إذ هذه الصورة تتحول عند شاعرنا إلى صورة ذئب يعوي لا من الجوع بل من هول هذه المفاوز والصحارى التي قطعها الأمير دون أن يظهر خوفاً أو جبناً، فهذه الصحاري من الاتساع بحيث أن القطا يظل ولا يهتدي لطريقه»⁽¹⁾. فيقول:

وَكَمْ مِنْ مَفَازَاتٍ يَضَلُّ بِهَا الْقَطَا ** قطعت بها والذئب من هولها عوى⁽²⁾

ويظهر مقابل هذا البيت في شعر امرئ القيس بقوله:

ووادٍ كجوفِ العيرِ قَفْرٍ قطعته ** به الذئب يعوي كالخليع المَعِيلِ⁽³⁾

فقد حرص الشعراء العرب على إبراز صورة الحياة البدوية « فوجدناهم حريصين على تلوينها ليضفوا عليها قدرا من الواقعية (...) فنراهم قد دأبوا على استحضار المرثيات بشيء من الدقة لأنهم أدركوا بفطرتهم أن الألوان من المستلزمات في إثارة الرؤى والمشاعر»⁽⁴⁾ فالصحراء في ثقافة الأمير عبد القادر تمثل بداوة العربي وفضاءه الذي لا ينافس فيه أحد ومنها يستمد قوته وفيها يرتحل ويكسب رزقه « فالمكان الذي يطيب للعيش، هو المكان الذي يجد الإنسان فيه كرامته ويشعره بعزته، فلا يذل فيه ولا يهان، ولا ينتقص منه، ولا تضيع حقوقه فيه فهذا المكان الطيب دون النظر لكون بادية أو حاضرة»⁽⁵⁾ فالأمير وصف الطبيعة الصحراوية ببساطها الذهبي وأثنى على ثرائها وجمالها وصفاء ونقاوة رائحتها وربطه بالليل كما ربطه بالصباح الباكر، ما يبرز معايشة الأمير لهذه الحياة واختيارها حيث فضل الأمير حياة البدو على حياة سكان الحضر في قصيدته ما في البداوة من عيب" في قوله:

يا عاذراً لامرئٍ قد هامَ في الحضرِ ** وعاذلاً لمحَبِّ البـــــــدوِ والقفرِ

(1) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً، ص 202.

(2) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 52.

(3) - امرئ القيس: ديوان امرئ القيس، ص 50.

(4) - عباس مصطفى الصالحي: الصيد والطرْد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1402هـ/1981م، ص 225.

(5) - محمد عمر أبو ضيف محمد: البداوة والحضارة عند المتنبي، ص 91.

لو كنتَ تعلمُ ما في البدوِ تعذرني ** لكن جهلت وكم في الجهل من ضررٍ

نلقى الخيامُ... وقد صفتَ بها- فعدتُ ** مثل السماء زهت بالأنجم الزهر

سفائنُ البرِّ بل أنجى لركابها ** سفائنُ البحرِ كم فيها من الخطر!!⁽¹⁾

فالأمير هنا فضل حياة البادية على الحاضرة وقد عذر ساكن الحضر على عدم معرفته للبدو وحياتهم فأخذ يثبت رأيه ويدعمه بشعرية الحجاج، حيث أراد أن يثبت صحة موقفه في تفضيله للبادية والشواهد الطبيعية من خلال التنوع في الأساليب والإلتفات في الضمائر، ويبرز مقدرته على وصف هذه الحياة في معجم لغوي تبدو فيه الصور الطبيعية والحسية من مطر ونجوم ورعد وبحر وخيام صفت كالأنجم، وقال أن الإبل أسلم من ركب السفن فالأمير فضل البادية وأثرى رأيه بالرجوع إلى واقع أنه عاش بالبادية وأعطى صوراً وأحكاماً سابقة عن البادية مردها إلى معاشته واحتكاكه بالبدو. وجاء تفضيل الأمير للبادية باعتماده على وحدة الموضوع بالنسبة للأبيات الشعرية، فبنى الأمير عبد القادر مفاضلته باعتماد لفظة البدو والحضر لعارضة دلالية "هام بالحضر" و"محب البدو القفر"، حيث تحمل تضاداً في المعنى وتصنع فرادة في التعبير، إلا أن تفضيل البدو على الحضر له مثيله عند المتنبي من قوله:

وبكرٍ يتبع الأظغانَ صعبٌ ** أحبُّ إليَّ من بعلٍ زفوفٍ

وخرقٌ من بني عمي نحيفٌ ** أحبُّ إليَّ من عالجٍ عنوفٍ

حُشونُهُ عيشةٌ في البدو أشهى ** إلى نفسي من العيش الطريفِ

فما أبغى سوى وطني بديلاً ** وما أبهأ من وطنٍ شريفٍ⁽²⁾

⁽¹⁾ - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، صص 50، 51.

⁽²⁾ - المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د ط، 1403هـ/1983م، ص 79.

لكن المتنبي هنا ركز على الجوانب المادية التي تبنى عليها البادية والطبيعة المميزة لها أما « الأمير عبد القادر ذكر محاسن البدو فهو يصبح على بساط الرمل الذي يشبه الدرر ويرى المناظر الرائعة الشيقة العطرة ويستنشق النسيم العليل الذي يغذي الروح... ثم يعدد المناظر الرائعة للبادية (...) فكان حديثه غير متصنع سهلا غير متكلف لذا أبان عن قيمة البداوة عنده بما تحمل من هدوء النفس وصفاء الذهن وراحة البال وهي البيئة المثالية للمبدعين سيما الشعراء فرؤيتهم تختلف فهذا مادح متزيد والمتنبي واصف معتد⁽¹⁾ كما نجد الأمير عبد القادر يسهب في وصف الطبيعة من خلال قصيدته (جنات دمر) قائلا:

عُجَّ بي - فديتْكَ - في أباطح دَمَّرِ ** ذات الرياض الزاهرات النُصْرِ
ذاتِ المياه الجاريةِ على الصفا ** فكأنها من ماء نهر الكوثرِ
ذاتِ الجداولِ كالأراقِمِ جَرِيها ** سبحانه من خالق، ومُصوِّرِ
ذاتِ النسيمِ الطيِّبِ العطرِ الذي ** يُعْنِيكَ عن زبدٍ ومسكِ أذْفَرِ
والطيِّرُ في أدواجِها مترنِّمٌ ** برَجِيمِ صوتِ فاق نغمةَ مژْهِرِ⁽²⁾

فقد طغى على هذه الأبيات بروز الصور المادية الحسية المرتبطة بعناصر الطبيعة الجميلة في معجم واضح لا تعقيد فيه بقوله الرياض الزاهره والمياه الجارية ونهر الكوثر والنسيم الطيب والأطيوار المترنمة، وكل ما يدور حول الطبيعة، فمن خلال تفضيل الأمير للبادية « تجلت ملامح الحدائث في شعره على مستويين هما: مستوى حوار الحضارات والأديان ومستوى التزاوج بين سياق الريف والمدينة، فسياق الريف مفرز للبطولة ولتجليات القيم ولهذا يكون الأمير قد سبق غيره من الأدباء العرب في الإشادة بأفضلية الريف في الشعر». ⁽³⁾

⁽¹⁾ - محمد عمر أبو ضيف محمد: البداوة والحضارة عند المتنبي، ص 87.

⁽²⁾ - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 100.

⁽³⁾ - محمد بشير بويجيرة: الأمير عبد القادر، رائد الشعر العربي الحديث، صص 113 ، 114.

فقد تميز أهل البادية بالتنقل والترحال الدائم عبر قوافلهم وإبلهم فهم لا يستقرون في مكان واحد مدة طويلة فقد فضل الأمير هذه الحياة على حياة الحضر المقتصرة على التمرکز في مكان واحد.

- الترحال وعدم الاستقرار:

لقد أخذ السفر البري والترحال القسط الأكبر من حياة البدو وعبر الأمير عن ترحال البدو بصور بدوية مستمدة من الواقع فقال:

يومَ الرَّحِيلِ إِذَا شَدَّتْ هَوَادِجُنَا ** شَقَائِقَ عَمَهَا مَزَنَ مِنَ الْمَطْرِ (1)

فالترحال هنا يبرز مكانة التنقل عبر الصحراء عند البدو « فالرحيل زينة تتوهج بإتقان حسن العذاري... والحدأة ووصف الخيل [باعتبارها مطية البدوي] من خلال وصف حليتها، من ذلك عرضه لشليل وهو أنفس ما يزدان به صدر الجواد...» (2).

ثم يشير الأمير إلى الركب وهو الخيل الذي يتنقل به البدوي أو الجمال أو الإبل فيقول في وصفه للترحال:

إِلَى أَنْ أَنْخَنَا بِالْبَطَاحِ رَكَابَنَا ** وَحَطَّتْ بِهَا رَحْلِي، وَتَمَّ لَهَا الْبَشْرُ

بطاح بها البيت المعظم قبلة ** فلا فخر إلاّ فوقه ذلك الفخر (3)

فعندما يحط البدوي في موضع جديد في البادية بعد عناء ترحاله ينصب خيامه.

- الخيمة:

الخيمة في العرف البدوي لها قيمة معنوية لدى البدويّ فتبرز على مد البصر وتبرز كالأنجم الزهر في صيغة مشابهة:

نروح للحَيِّ لِيلاً بعدما نزلوا ** منازلنا ما بها لطخ من الوضِر

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 50.

(2) - سليمان عشراقي: الأمير عبد القادر الشاعر - مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة المابعد-، ص 174.

(3) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 107.

تراثها المسكُ بل أنقى وجاد بها ** صوبَ الغنائمِ بالأصايلِ والبكرِ

نلقي الخيامَ.. وقد صفتَ بها فعدت ** مثل السماءِ زهتٌ بالأبجمِ الزهرِ⁽¹⁾

ويقول في موضع آخر:

لا تدمنَّ بيوتاً خفَّ حملها ** وتمدحنَّ بيوتَ الطينِ والحجرِ⁽²⁾

وفي موضع آخر:

الحسن يظهر في بيتين، رؤنقه ** بيت من الشعرِ أو بيت من الشعرِ⁽³⁾

فقد ميز الأمير بين بيت البدو وبيت الحضرم وأرجعه إلى ثقل بيت أهل الحضرم وخفة الخيمة بقوله: خفَّ حملها في مقابلها قوله بيوت الطين والحجر عند الحضرم، هذا التضاد في اللفظتين أو الطباق أضفى شعرية على وصف الأمير للخيمة، ليزر بعدها جمالها بتضمين الحسن في الشعر أو البيت الشعري ووضعه في كفة واحدة مع بيت الشعر الذي يقتصد به الخيمة من خلال تغيير في حركة حرف الشين تارة بالفتحة وتارة بالكسرة، لكن الأمير في صغره لم يسكن الخيمة إلا أنها أخذت مكانة عنده في تأسيسه لمدينته المتنقلة "الزمالة" وهي مجموعة من الخيام التي تنتقل وفقا للمخططات العسكرية للأمير، والملاحظ على هذه المدينة المكونة من الخيام «كثرة التنقل والحركة التي فرضتها عليه ظروف الحرب مع العدو، حين ذلك فقط اضطر الأمير أن يستعمل بيوت الشعر لحفتها وجمال المسكن بها»⁽⁴⁾ فارتباط البدوي بالخيمة ترجع أصوله إلى زمن غابر حتى أن الشعراء البدويين أنشدوا أشعارا في الخيمة يقول المتنبي:

أَيَقْدَحُ فِي الْخِيْمَةِ الْعُدْلُ ** وَتَشْمَلُ مِنْ دَهْرِهَا يَسْمَلُ

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 51.

(2) - المصدر نفسه، ص 50.

(3) - المصدر نفسه، ص 50، 51.

(4) - محمد بشير بوجيرة: الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، ص 200، 201.

وتعلو الذي رُحِلُ تحته ** مُحَالٌ لعمرك ما تُسألُ

فلم لا تلوم الذي لامها ** وما فصُّ حاتمِهِ يَدْبُلُ. (1)

وبالإضافة إلى بروز الخيمة وتغني الأمير بما يظهر ارتباطه بالبيئة البدوية من خلال طرق مكوناتها وقد أخذ الحيوان قسطا كبيرا في شعر الأمير، فالحيوانات في البادية تتنوع من خيول وإبل وغيرها كان لها مكانة عند البدوي فهي وسلته في التنقل ومورد قوته فالظبي مثلا أخذ قسطا في شعر الأمير بقوله:

ألا من مُنصِفي من ظبيِّ قفْرِ ** لقد أضحت مراتعه فؤادي؟!

وماذا؟! غير أن له جمالاً ** تملك مُهجتي ملك السواد (2)

فقد أطلق أوصاف الظبي وأطلقها على حبيبته «فالأمير لم يتعد عند الجوانب المادية الحسية فحبيبته ظبي الصحارى حسن القدّ، مليح الوجه يتدلل ويتيه حسناً وجمالاً، وكلها صور مادية على الرغم من غزل الأمير العفيف». (3) ثم استخدمه مرة أخرى في سياق الغزل كتشبيه مادي بقول:

أودُّ بأن أرى ظبيَّ الصحارى ** وأرقبُ طيفه والليلُ سارِ

ويضيف أيضاً:

وهذا الظبيُّ لا يرى ذمّاماً ** ولا يرضى مؤانسةً لجارِ (4)

فقد كرّر الوصف وشبه الحبيب بوحش البراري، واستخدم لفظة الظبي، وهو من مترادفات الغزال فالصورة التقليدية البدوية في الأبيات والسياقات جميعاً هي تشبيه تراثي إستدعائي، لأنه متوارث في المخيال العاطفي العربي، فيلجأ الأمير إلى استخدام التشبيه التجريبي ليغدو طيفاً والطيّف كما نعلم وهم لا حقيقة

(1) - المتنبي: ديوان المتنبي، ص 306.

(2) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 59.

(3) - عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص 320.

(4) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 58.

فحسبته ذهنية وليست مادية، وهو ما يجعل الصورة في قالب شاعري جميل أساسه الخيال والتشبيه⁽¹⁾ لتبرز بعد هذا شعرية الأمير في وصفه وفخره بخيله واتخاذها أنيسة في الحرب كما في الصيد.

ب- الخيل والصيد:

بروز الخيل مبعث فخر البدوي وأنيس البدو في تنقلاتهم عبر الصحراء فهو أنيس الرحلة و المطية في الصيد « إنَّ الفرس تختبئ في لا وعي النص الشعري مثلاً أعلى للوفاء والجمال والأناقة والرشاقة، فاقترنت صورة الفرس بصورة المرأة الحسناء». ⁽²⁾

الخيال:

فقد وصف الأمير عبد القادر فرس وجياد قومه في خضم المعارك الكبرى قال:

وعزَّ جيادًا جاد بالنفسِ كُرَّها ** وقد أشرفتُ - مما عراها - على الثوى

ألا !! كم جرَّت طَلَقًا بنا تحت غَيْهِبِ ** وخاضت بحار الآل من شدة الجوى

وكم من مَفَازاتٍ يَضِلُّ بها القَطَا ** قطعَتْ بها والذئبُ من هو لها عوى

وقد أصبحت مثل القسسى ضوامرَ ** وتلك سهام للعدى وقعها شوى ⁽³⁾

جاءت هذه الأبيات لتبرز صورة شعرية خاصة بفرس الأمير عبد القادر مفتخرًا بها ومتباهيا وممتنا لها ومتحاورا معها في بعض الأحيان، فقد ربط الأمير بين البيئة القاسية التي يعيش بها ويجعلها ساحة معركة في غالب الأحيان ليظهر انعكاسها على فرسه القادرة على قطع المفاوز فهنا يشير إلى الصحارى القاحلة والفلات وشظف العيش ولشدتها حتى الذئب لم يستطيع تحملها بقوله والذئب من هو لها عوى إلا أن فرس الأمير قادرة على تحمل

⁽¹⁾ - ينظر: سليمان عشراي: الأمير عبد القادر الشاعر، صص 63، 64.

⁽²⁾ - عبد الإله الصائغ: الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، المركز الثقافي للعرب، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997 م، ص 148.

⁽³⁾ - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 52.

كل هذه الأهوال، فهنا تبرز قوة التحمل والصبر والشدة وتحمل العطش والحز والتضاريس الوعرة، وربطها الأمير بالبيئة البدوية الصعبة زادت إلى حدّ كبير في جلاء المعنى وجمال الأسلوب وبداعة المشهد.

وتبرز حيوية الوصف عند الأمير حيث وصف حركة فرسه في الكرّ والفرّ ومراجع الصحراء فبلغت سرعة خيل الأمير أبعد الحدود فقطعت مغازات الصحراء في الغيب هنا إشارة إلى تَعُودها على دروب الصحراء حتى في الظلام حتى أنه شبهها بطائر القطا المشهور بسرعه الفائقة وانتقاله من مكان إلى آخر، حيث استعمل لفظة الآل والجوي وهو الاستمرار وعدم الملل من تنقل حتى أصبحت دائمة الفراق والترحال من مكان إلى آخر فاستعمال هذا المعجم اللغوي ينم عن ملكة لغوية وتخطبا مع مشاعر الأمير نفسه، حيث تبرز صلته بفرسه من جهة والمكان من جهة أخرى، فالفرس ومنذ القدم لها مكانة خاصة في قلب الشاعر فيقول طرفة بين العبد مفتخرا بفرس:

يَوْمَ تُبْدِي الْبَيْضُ عَنْ أَسْوِقِهَا * * وَتُلْفُ الْخَيْلُ أَعْرَاجَ النَّعَمِ
وَنَكْرُ الْخَيْلِ فِي أَدْبَارِهَا * * يَوْمَ لَا يَعْطِفُ إِلَّا ذُو كَرَمِ
نَمْسِكُ الْخَيْلَ عَلَى مَكْرُوهِهَا * * حِينَ لَا يُمْسِكُ إِلَّا ذُو كَرَمِ
تَذُرُّ الْأَبْطَالَ صَرَعَى بَيْنَهَا * * تَعْكُفُ الْعُقْبَانَ فِيهَا وَالرَّحْمَ⁽¹⁾

الملاحظ على أبيات "طرفة بين العبد" أن افتخاره بفرسه مقتصر على ذكر الفرس والإحاطة بجمالها وتعداد مناقبها وجميلها فهي ميزة الفخر بالفرس منذ القدم، إلا أن الأمير عبد القادر أكتمل فخره بفرسه بإحاطتها بجوانب حسية ومكونات البيئة القاسية التي خاض بها معاركه، حتى ظهر بينه وبين فرسه علاقة متينة تكشف عن الوفاء الذي يتبادله كل من الأمير وفرسه، فهو لا يخذله في الحرب، كل هذا أخرج الأمير في مشهد متكامل أبعد

(1) - طرفة بن العبد: ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، صص 143 و147.

الأمير من رتبة التقليد بل جاءت كل معاني الأبيات في شكل تلميحات تختفي خلف الألفاظ دون المباشرة في طرح المعاني، حتى أصبح الأمير يتحاور مع فرس ويبوح له بدواخله يقول:

وأشقر نَحِّي كَلِمَتِهِ رَمَاحُهُمْ * * * ثَمَانٍ وَلَمْ يَشْكُ الْجَوَى بِلَ وَمَا التَّوَى⁽¹⁾

فالفرس «يكاد يكون كوثاً قائماً بذاته، يتحمل في سياقاته كثيرا من الإسقاطات وكثيرا من الرموز، كما يتحمل كثيرا من ملامح الشخصية التي أبدعتها»⁽²⁾ وهنا إشارة إلى أن قوة الفرس من قوة الأمير وبسالة الفرس وخوضها الصحراء ينم عن بيئة الأمير البدوية القائمة على المشقة وتحطّي أهوال المسالك، وفخر الأمير وانتصاره هو انتصار لفرسه أيضا، ليكتمل بمناجاة الأمير لفرسه ومحاورته له.

- الصيد:

لطالما ربطت العرب الصيد بالخيل لأنها مركب الصيد ورفيق دربه باعتبارهما رمزان للفخر عند البدو والبادية، فالأمير لم يغفل عن ذكر مناقب البدو في مجال الصيد ميرزا مهارتهم ومفتخرا بما «ثم يبين الحديث عن الصيد وأنواعه ويصف ما يفعلونه في رحلات صيدهم وجولات طردهم وهذه الرحلات خصيصة للصحاري والبادية ولن تستطيع الحضر تنفيذها»⁽³⁾ فالبدوي ونتيجة لترحاله الدائم مجبور على استخدام الصيد كوسيلة مضمونة لكسب قوته ودفاعا عن نفسه.

لكن الأمير عبد القادر لم يجعل للصيد قصيدة مستقلة بل ضمنه شعره، وهذا يرجع إلى الطبيعة الفردية والاستقلالية التي لا تخضع لأي قيود حتى في نظام القصيد فهي الميزة التي خلق عليها البدوي الذي يجب التحرر

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 53.

(2) - بوجمة بويحيو وآخرون: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 2002، ص 46، نقلا عن خالد الزواوي: تطور الصورة في الشعر الجاهلي، مؤسسة حورس الدولية، د ب، ط 1، د س، ص 69.

(3) - محمد عمر أبو ضيف: البداوة والحضارة عند المتنبي، ص 89.

وعدم القيود «وما ميز شعر الطرد الجاهلي والإسلامي عن الطرديات التي استقل وصف الصيد بها عن أغراض الشعر حيث صار هذا يقصد لذاته ولا يشاطره عوضاً آخر»⁽¹⁾.

وقد قال الأمير في وصف الصيد:

تُباكر الصيدَ أحياناً فنبغته ** فالصيدُ منا مدى الأوقاتِ في دعرِ
ونحن فوق جِيادِ الخيلِ نركضُها ** شليلُها زينةُ الأكفالِ والخصرِ
نطارِدُ الوحشَ والغزلانَ نلحقها ** على البُعادِ وما تنجو من الضميرِ⁽²⁾

أول ما يبرز تكرار الأمير للفظة الصيد يتبادر إلى الذهن أنه راسخ في مقومات شخصية الأمير يعبر عن بداوة الأمير بصراحة فقد امتزج المشهد البدوي للصيد لدى الأمير في ذكره لمجموعة الموجودات الحسية التي تشكل الصبغة البدوية، وركز على موجودات محددة تخاطب الوجدان وهي: الجياد، الخيل، الوحش، الغزلان...، ثم ربطها بالإنسان البدوي وجعل وثاقاً متينا بينهما في وجود من الحركة وعدم السكون.

فوصف الخيل وهي تركض وتتابع الوصف عن طريق الإضافة التي وردت (شليلها زينة الأكفال والخصر) وهو ما أضفى على الصورة الحيوية والحركة؛ كأنها مشهد حي من خلال وصف السرعة واستعمل كلمة نلحقها للتعبير عن السرعة الفائقة لهذا الحصان، هذا التابع وتعدد صفاته في النص يخلق جمالية وشعرية على حركة الخيل.

فالأمير يتطرق إلى ثنائية الكرّ والفرّ في حديثه عن الصيد في قوله: تباكر إضافة إلى استعماله صيغ المضارعة في التعبير عن هذا تباكر، نبغت، نطارِد، نركض، مما يجلنا إلى حس جماعي يدل على استمرارية الحدث من جهة وقيمته عند البدوي من جهة أخرى ليعزز الصيد كميزة ومفخرة للبدوي.

(1) - عباس مصطفى الصالحي: الصيد والطرْد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، صص 205، 206.

(2) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 51.

فدلالات النص تعبر عن الوجود العربي والمعطى الحضاري العربي بمكون شخصي يعطي مفهوما

حضاريا لطبيعة هذا الوجود وتعبر دلالاته عن العزيمة واليقظة والقدرة كآآتي:

العزيمة - تباكر

اليقظة - نبغت

القدرة - نطارد⁽¹⁾

فمطاردة الفرائس والصيد موهبة فطرية عند البدوي لاسيما العرب ومن مثيلاتها في الشعر العربي الكثير

فأبو نواس في وصفه للصيد على الفرس قال:

قد اغتدى والصبح محمر الطرر ** والليل تحدوه تباشير السحر

وغلام زهير كذلك، تغمره الفرحة حين شاهد شيها رائعات، فيثوب متخفيا ليعلم سادته بما رأى:

فبينما نبغي الصيدَ جاء غلامنا ** يدبُّ ويخفي شخصه ويضائله

ثم يوصى زهير غلاما بأن يباغت الصيد، ويأتيه من حيث لا يشعر فإن التزم بتلك الوصية قتل الطريدة، فلا تضيع منه الفرصة. وقال:

تعلم أن الصيدَ عُرَّةٌ ** وألا تُصَيِّعها فإنك قاتله

ثم يعود زهير ليفصح عن نفس المعاني فيقول:

إذا ما اقتنصنا لم نخاتلَ بجنةٍ ** ولكنْ نُنادي من بعد ألا إركب⁽²⁾

(1) - ينظر: محاضرة حركية الأحياء الشعري المغاربي، صص 18، 19.

(2) - عباس مصطفى الصالحي: الصيد والطرود في الشعر العربي حتى ثمانية القرن الثاني الهجري، ص 74.

فالأمير اتبع أسلافه في قدرتهم على اقتناص الفريسة والتي تنتهي دوماً بضمورها أما الأمير فقد أبدع في تصوير الصيد فقد ربطه بالبكور وهو الصباح الباكر واقتناص الفريسة عن طريق المباغثة والمفاجئة إلى أن يربط الصيد باعتبارها معطى بدويا بجمالية الخيل التي هي وسيلة في الصيد وتنتهي رحلته هذه بالانتصار على الفريسة بقوله : وما تنجو من الضمر فالأمير وعبر فرسه وجياده حاول إبراز قوة وتحمل والصبر على الطبيعة، لكنه لم يعبر عن هذا صراحة فلم يسقط الأمير في التقليد بل جاءت أبياتها في إطار التلميح دون المباشرة في طرح المعاني.

لعل أجمل عناصر البيئة البدوية المفتوحة على أفق السماء وجمال الليل بظلمته فلطالما ارتبطت البدوي بالليل من خلال مراقبته والسهر على ضوء نجومه حتى أصبح يناجيه ويبرزه في خطابه الشعري.

ج- شاعرية الليل عند الأمير:

فالأمير لا يختلف عن أسلافه من القدامى في مناجاة الليل فغالبا ما يربط الأمير ليله بالحزن والهموم ويربطها به فيصور ليله بقوله:

وَحُزْنِي - مع الساعات - يربو مجدداً ** وَلَيْلِي طَوِيلٌ وَالْمَنَامُ تَفْوَرٌ

وحتى متى أرعى النجوم مسامراً ** لها ودموع العين ثم تفور

أبيتُ كأني بالسَّمَاكِ مُوَكَّلٌ ** وعيني حيث الجدِّي دارَ تدور⁽¹⁾

فالليل يحمل مكانة كبيرة في قلب ومشاعر الأمير على غرار الشعراء القدامى « لقد اشتكى الأمير طول ليله، حتى صار شاعرنا وكأنه حرس لنجومه فيدور حيث تدور أو كأنه راع مسامر لهذه الكواكب التي تأتي الزوال.

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 57.

لقد كشفت هذه الأبيات مدى القلق النفسي الذي يعاني منه الشاعر⁽¹⁾ فليل الأمير طويل ولا ينجلي كليل من سبقوه من الشعراء. فهذا النابغة البياني ينشده في الليل أشعاره بقوله:

كليني لهم يا أميمه ناصبِ ** وليل أفاسيه بطيء الكواكبِ
تطاول حتى قلتُ ليس بمنقضِ ** وليس الذي يرعى النجومَ بأبِ
وصدُرُ أراح الليلَ عازبُ همّه ** تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبِ⁽²⁾

فالمقطعان هنا يحملان نفس الدلالات حول الليل في طوله، وعدم انجلائه متكبدين فيه عناء الحزن والهموم وشدة القلق حتى يتمنى الشاعر زواله لكن دون جدوى فالأمير ورغم بسالته ومنزلته إلى أن ليله موحش ومتمرد ولا يطاوع قلب صاحبه فالقلق والاستياء يلازمانه .

فنجد امرئ القيس يناجي ليله في أبياته المشهورة:

وليلِ كموج البحرِ أرخى سدولهُ ** عليّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلتُ له لما تمطى بضلبيهِ ** وأزدفَ أعجازاً وناءً بكلكلِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا أنجلي ** بصبح وما الإصباحُ منكُ بأمثلِ⁽³⁾

فامرئ القيس عبر عن ضيقته وقلقه وطول ليله حتى أنه يترجاه أن ينجلي ، ويطلب بطلوع الصبح لعله يتخلص من قسوته ووطأته العنيفة عليه، أما شاعرية الأمير في مناجاته الليل فقد جاءت موصولة بالحنين إلى الأحبة المغايرة لليل امرئ القيس يقول الأمير:

(1) - بوجمة بوبعوي وآخرون: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، ص 41.

(2) - النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص 27.

(3) - امرئ القيس: ديوان امرئ القيس، ص 48.

كَمْ لَيْلَةً قَدْ بَتَّهَا مَتَحَسِرًا ** كَمِيتٍ أَرَمَدَ فِي شَقَا وَتَمَلُّلٍ

سَهْرَانَ ذُو حُزْنٍ تَطَاوَلَ لَيْلُهُ ** فَمَتَى أَرَى لَيْلِي بَوْصَلِي، يَنْجَلِي؟⁽¹⁾

فالأمرير يرجى انجلاء الليل وبالمقابل وصل الحبيب فصورة الليل عند الأمرير عبد القادر «كانت ملتبهة لأن ليله لم يكن عادياً، وما كان ينتظره أصعب مما انتظره غيره من الشعراء، وهو الإصباح ومن ثم فإن ليل الأمرير قد لا ينجلي أبداً إذا لم يتحقق الوصل ومن هنا كان ليله أثقل وأوحش من الليل الذي ينتظره صاحب الصباح الذي هو آت مهما طال هذا الليل»⁽²⁾ فالأمرير أحاط الليل بصورة فنية رائعة فتحت هذه الفنية في التعبير لمزج الأمرير بين الشوق للأحبة وضيق الواقع الذي حتمه عليه ليله، فقد ضمّن الأمرير صورة الحبيبة في ظلام وقصر الليل وطوله.

وقد جاءت في البيت الأول في شكل تلميح ليصرح به في البيت الثاني يقول " بوصلني ينجلي " فالليل في البيئات هو ليل واحد، لكن الأمرير صنع له خصوصية كشفت عن مغايرة واضحة في الطرح الفني ليله مما أضفى شاعرية مميزة على الأمرير زادت في بهائه وعمقت من شدة هوله واشتياقه وعبر عن هذا باستخدام صيغة الاستفهام "فمتى" كصيغة جديدة لمخاطبة الليل.

فقد برزت شاعرية الأمرير واضحة في الإحاطة بالجانب المادي للبادية، فتتبع كل الموجودات الطبيعية فالصحراء ووصف ترحال البدو وعيشهم بالخيام فأحاطها بوصف شاعري يخلق لنا عالماً متخيلاً كاد أن يفوق الواقع، إضافة إلى الإعلاء من شأن العرب في فروسيته وإتقانهم فن الصيد دون أن ننسى شاعريته في مناجاة الليل.

2- شعرية الأمرير في تصوير الجانب المعنوي للبادية:

إن حب الأمرير عبد القادر للبيئة البدوية وهيامه بها، لم يكن نتيجة ثقافته الواسعة أو إطلاعه على الحضارات المختلفة وإنما كان شعوراً طبيعياً ولد في شخص الأمرير بالفطرة باعتبار الأمر عبد القادر ابن البيئة

(1) - الأمرير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 84.

(2) - بوجمة بويحيو وآخرون: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، ص 43.

البدوية بامتياز فقد استطاع أن يكون الابن البار وحامل لواء هذه الحضارة والثقافية المختلفة لينقل لنا في ثنايا شعره تفاصيل بسيطة ترتبط بحياة الإنسان البدوي. في جانبها المعنوي المتمثل في الثقافة والقيم البدوية « إن الأمير ظل يعتمد في عدته الشعرية على الموروث الناجز كما تلقاه من ثقافته ومن أعراف تلك الثقافة (...) التي ورثها عن حضارته العربية الإسلامية والتي كانت بيئته وأمته». (1)

ولأن الشاعر ابن بيئته، كان شعر الأمير عبد القادر معبرا عن هذه الثقافة البدوية التي نشأ في كنفها الأمير عبد القادر، متغنيا أيضا بالقيم البدوية التي تنشئ الإنسان البدوي نشأة سليمة، ولعل ما يفسر لنا تأثير الأمير بالبادية هو أنه كبر على حبها، وكبرت أدناه على سمع شعر أبنائها، لتجود قريحته بما يتلاءم مع البيئة البدوية التي نشأ فيها وما كبرت عليه أدناه: لقد استلهمت قصائد الأمير بعض أشعار عنزة وأضرابه من الشعراء الجاهليين واستحضرت مواجد أولئك الشعراء في الإعراب عن الحب وإظهار شمائل العزة والكبرياء والفروسية وضاهتهم في الاعتداد بالخيال، الصافنات الجياد ومخاطبتها ومقاسمتها المشاعر، كما جارحهم في استعراض المآثر الشخصية من موقع أخلاقي فخري متزن». (2)

إن ما لا يجب إهماله عند الحديث عن هذه النقطة المحددة أي تأثير الأمير بشعر الأولين سواء في أغراضهم أو موضوعاتهم هو الإشتراك في عيش حياة تسير وفق نمط ورتم واحد أي الحياة البدوية البسيطة التي عاشها الأعرابي القديم وهي نفسها حياة البدوي في عصر الأمير، ولعل بساطة الحياة في البداوة وقساوتها فرضت على الإنسان البدوي مجموعة من القيم التي وجب عليه أن يتحلى بها ليقدّر على مجابهة قساوة الطبيعة وصعوبة الحياة في البادية كالصبر والفخر والشجاعة والحماسة وكلها ترتبط بالإنسان والبيئة البدوية.

(1) -سليمان عشراقي: الأمير عبد القادر الشاعر، ص 160.

(2) -المرجع نفسه، ص 106.

أ- الفخر:

إن تأثر الأمير عبد القادر بالبيئة البدوية العربية القديمة يبدو لنا جلياً من خلال موضوعات أشعاره وتأثره بالقيم البدوية كالفخر مثلاً «كفن والفخر خطاب نظمي وعدة لغوية تستمد مادتها من ثقافة الشاعر ومحصلاته التعليمية الوجدانية فقد رأينا شاعرية الأمير تستوحي من القرآن والشعر القديم (...)» ولقد ظلت شعرية الفخر تقوم في أعراف العرب على مذهب تفخيم الذات وتنزيلهما ووسمها بصفات الكمال والقوة والافتخار والاستبداد⁽¹⁾ وهذا ما نجده حاضراً عند الأمير عبد القادر من خلال أشعاره، فنجدته يفتخر:

- النسب الشريف:

لعل أسمى أنواع الفخر في الشعر العربي، الفخر بالنسب الشريف والاعتزاز به، وهذا ما نجده حاضراً بقية عند العرب القدامى وخاصة عند أصل البوادي لأنهم كانوا أكثر حرارة وتعصباً لأنسابهم من غيرهم فقد كان الشعراء يتسابقون لكتابة قصائد طوال يتفاخرون فيها بأنسابهم كلاً يعلى من حسبه وبنسبه كما يقول أبو تمام:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمسِ الضُّحَى ** نوراً ومن فلقِ الصباحِ عموداً.⁽²⁾

ولم يتخلف الأمير عبد القادر في الافتخار بنسبه الشريف هو الآخر، فكان لا يفوت فرصة إلا ويعلي فيها من شأن نسبه؛ ويحق له ذلك فهو ليس أي نسب وإنما هو نسب محمد صلى الله عليه وسلم «يفتخر الأمير بأنه منتم إلى الدوحة النبوية الشريفة، فهو من الفرع الحسيني، الذي يستمد قدره ومكانته من رسول اله (صلى الله عليه وسلم) ومن هنا كانت حتمية الولاء والطاعة لهذه الدوحة النبوية (...)» ويكتفي الأمير بهذا الفخر عن كل

(1)- سليمان عشراقي: الأمير عبد القادر الشاعر، ص 160.

(2)- الخطيب التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، ج 1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ/1994م، ص 220.

منصب، وعن كل رتبة نبوية، لأنه لا مجال للمقارنة والمفاضلة بين فخر وفخر، خصوصا إذا كانت المقارنة والمفاضلة بين فخر نبوي شريف، وبين فخر مادي دنيوي»⁽¹⁾. يقول الأمير عبد القادر:

أبونَا رسولُ الله، خير الوری طرَا ** فمَن فی الوری یبغی یطاولنا قدرًا
ولانَا غدَا دینًا وفرضًا محتمًا ** علی کلُّ لبِّ به یأمن الغدْرَا
وحسبي بهذا الفخرِ من کل منصبٍ ** وعن رتبةٍ تسمو وبيضاءٍ أو صفْرَا
بعليائنا، يعلو الفخارُ وإن یکنُ ** به قد سما قومٌ، ونالوا به نصرًا⁽²⁾

في هذه الأبيات الشعرية تعبير واضح من الأمير عبد القادر باعتزازه بنسبه الممتد للرسول صلى الله عليه وسلم وأنه يعلو بها على كل نسب، كما نجد الأمير أيضا يباهي بأصله العربي وهو مرتبط بنسبه بالفطرة.

إن ما يذكر للأمير عبد القادر أنه حينما كان يفتخر بنسبه وأصوله لم يكن لنية الإعلاء من قدر النفس فقط بل كان محاولة منه لمجابهة الآخر المحتمل، وهذا ما يضيف نوع من الشعرية الخاصة في فخر الأمير بجذوره «لم يكن في نية الأمير أن ينتج نصا شعريا في الفخر يشيد بخصاله وبنسبه ويتفاخر بمناقبه وإنما الفخر عنده يدخل في إستراتيجية دفاعية دعائية إعلامية الغرض منها تقديم النموذج الأمثل للآخر المحتمل الذي يجمل الأرض ويتجاهل الخصوصية الحضارية لهذا الشعب»⁽³⁾ هذه الخصوصية التي ارتبطت بشكل كبير بالمكان المتمثل في البيئة البدوية التي نشأ فيها الأمير.

ولعل جدلية "الآن الجزائري" و"الآخر المحتل" كانت وراء ميل الأمير إلى استعمال ضمير الجمع "نحن" في

الكثير من قصائده الفخرية كقوله:

(1) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 191.

(2) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص 45.

(3) - محاضرة حركة الإحياء الشعري المغربي، ص 5.

لئن كَانَ هذا الرسمُ يُعطيكَ ظاهري ** فليس يُريكَ الرسمُ صورتَنَا العُظمى⁽¹⁾

وهنا نجد تقابل وجمع بين الضميرين "أنا" و"نحن" في محاولة منه لأن يربط صورته بصورة الجماعة، وهو نوع من الإقرار الضمني بارتباطه ومصيره المشترك مع الجماعة، فقد أنتج هذا التنوع في استعمال الضمائر شاعرية خاصة وجمالية تفوق ما يمكن أن يحمله بيتا واحدا من الشعر.

كما نجد أيضا في أبيات أخرى يفتخر بهذا النسب الشريف فيقول:

لَنَا فِي كُلِّ مَكْرَمَةٍ مَجَالٌ ** وَمِنَ فَوْقِ السَّمَاءِ لَنَا رِجَالٌ

رَكِبْنَا لِلْمَكَارِمِ كُلِّ هَوْلٍ ** وَخُضْنَا أَبْحَرَأَ وَلَهَا زِجَالٌ

إِذَا عَنَّا تَوَاتَى الْغَيْزُ عَجْرًا ** فَنَحْنُ الرَّاحِلُونَ لَهَا الْعِجَالُ⁽²⁾

والملاحظ على أن لغة شعر الأمير في أشعاره الفخرية، كانت تميل في أغلبها إلى استعمال ضمير الجمع "نحن" (لنا، ركبنا، خضنا، نحن) كتأكيد منه على إحقاق نسبه بنسب سيد الخلق، وأصله العربي الأصيل.

- الفخر بالبادية:

إن ما يفسر لنا حضور البيعة البدوية - كثيرا - في شعر الأمير عبد القادر هو نشأته فيها، ولعل أهم غرض شعري ملائم عبر به الأمير عن انتمائه لهذه البيعة كان الفخر، فنجده لا يفوت فرصة ليعبر فيها عن فخره واعتزازه بانتمائه لها.

« ولعل أهم قصائده في هذا الجانب قصيدته الشهيرة " ما في البداوة من عيب " وتأتي مناسبتها في أن

الأمير كان أسير في " أمبواز " وكان موضع التكريم من علماء فرنسا ومفكريها يسألونه رأيه فيما اختلوا فيه: هل

(1)- الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص46.

(2)- المصدر نفسه، ص45.

البدو أفضل أم الحضرة؟ فرد عليهم بقصيدة انتقم فيها لنفسه وللبدواءة⁽¹⁾ «إن استفسار الجنرال الفرنسي حول التفاضل بين البادية والحضر استفز الأمير عبد القادر ليكتب قصيدته " ما في البدواة من عيب " كرد على هذا الزعم. ولعل شخصية الأمير البدوية إستثارته ليدافع عن البادية لأنه ابن هذه البيئة وهذه الحضارة المختلفة فهي تحمل ثقافة وحياة وقيم مختلفة عن ذلك الموجود في الحضر.

« إن قصيدة " ما في البدواة من عيب " تمثل صيغة جديدة لحرب دائمة بين "الأنا" و"الآخر" حرب نفسية يحاول الفرنسيون فيها ترسيخ الأفكار التي يعتقدونها حول الأمة الإسلامية وتاريخها وعقيدتها وحضارتها (...). يعرف الأمير معرفة جيدة بأن سؤالهم فيه غمز ولمز في شخصية الأمير ومرجعيتها الحضارية (...). يمكن القول بأن الأمر تفتن إلى هذه السخرية الحاملة لإقرار تغلب الحضر (الفرنسيين) الذين رفعوا لواء الحضارة والديمقراطية، على البدو (الجزائريين والأمير واحد منهم) الذين رفضوا الإنصياح إلى الفرنسيين وكأهم رفضوا الحضارة والرقى والتقدم».⁽²⁾

لقد عبر الأمير على افتخاره بالبادية بل تفضيله لها على الحضر. والأمر راجع إلى طبيعة التكوين النفسي الصافي المتشبع بصفو ونقاء البادية، فهو ابن الصحراء وهو الحامي لها بسيفه ولسانه، والمتصفح لقصيدته ما في البدواة من عيب يلحظ وجود مقارنة ومفاضلة. مقارنة بين البادية والحضر وتفضيل البادية على الحضر وافتخاره هذا نابع عن تأثره بالبيئة البدوية فالبدوي يفتخر ويعلي من شأن ذاته دائما.

يقول الأمير عبد القادر في مطلع قصيدته " ما في البدواة من عيب " يقول:

يا عاذراً لامرئٍ قد هام في الحضر ** وعاذلاً لمحِبِّ البدو والقفر

لا تدمن بيوتاً خفَّ حملها ** وتمدحن بيوتَ الطين والحجر

(1) - عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص 111.

(2) - محمد بشير بوجيرة: الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، ص 200.

لو كنت تعلم ما في البدو تعذري ^{**} لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر ⁽¹⁾

في هذه الأبيات وجه الأمير عبد القادر اللوم والعتاب لمن يطلقون أحكامهم بالانتصار لأهل الحضرة على حساب أهل البادية وعن جهلهم لما في البادية « استهل عبد القادر رأيه بتوجيهه لوم وعتاب رقيق لأولئك الذين ينتصرون لأهل الحضرة ويقفون إلى جانبهم ويلمون سكان البداوة لبساطة عيشتهم، ولا مناص أن هذا الحكم مرده جهل بحياة البداوة وفضائلها حقاً إن الجهل في مثل هذا الأمر ضرر عظيم (...)» إنهم لا يعرفون ما في البادية من مزايا ومناقب ويوم تتاح لهم فرصة العيش فيها يرون بأعينهم هذه الحياة الهائلة البسيطة ⁽²⁾ فالأمير عبد القادر حاول استغلال اللغة وصياغتها في سياقات مختلفة بنيت على المقابلة وبعبارة أخرى المجاهدة بين جمال الحياة في البادية ونقيضها في الحضرة، وهنا تبرز لنا شاعرية الأمير وقدرته على امتلاك اللغة وتوظيفها.

ونجد الأمير يفتخر ويعلي من شأن البادية وأهلها في كل أبيات القصيدة فتارة يصف جمال مناظرها وتارة أخرى حيواناتها وأخرى يتباهى بحياة البادية المختلفة، ثم يعدد المناظر الخلابة هذه المناظر تجلي الحزن من الصدور وتريح النفس:

لو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً ^{**} بساط رمل به الحصباء كالدرر

أو جلت في روضة قد راق منظرها ^{**} بكل لون جميل شيقٍ عطر

رأيت في كل وجه من بسائها ^{**} سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر

فيا لها وقفة لم تُبق من حزن ^{**} في قلب مضنٍ، ولا كذاً لذي ضجر ⁽³⁾

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 50.

(2) - عبد الرزاق بن السبع: عبد القادر الجزائري وآدابه، ص 112.

(3) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 50.

ولم يقف الأمير عبد القادر عند هذا الحد فقط في فخره بالبادية فنجدته يفتخر بأخلاق البدوي؛ فتارة يفخر بمروءتهم وإحسانهم وأخرى بكرمهم وسخائهم « ويبقى الكرم البدوي مضرب للمثل، وخاصة نار القرى التي تبقى مشتعلة طوال الليل لتهدى طرق الليل وعابري السبيل وتقوم هذه النار بواجب الضيافة البدوية التي تملئها عادات البدو وتقاليدهم في إغاثة الملهوف والمستغيث وإضافة الضيف». (1)

نَبِيْتُ نَارِ الْقَرْيِ تَبْدُو لِطَارِقِنَا ** فِيهَا الْمَدَاوَةُ مِنْ جَوْعٍ وَ مِنْ خَضْرٍ (2)

فالأمير هنا يفخر بكرم أهل البادية لأن الكرم صفة متأصلة في أهلها، يوصي الآباء أبنائهم بضرورة الجود والكرم مع القريب والغريب لأن الكرم يعلي من شأن الشخص ويرفع قدره وسط أهل عشيرته، ولعل طبيعة الحياة الصعبة في البادية أيضا تفرض على البدوي أن يكون كريما سخيا. « وفي كل الحالات وحسب كل القراءات يبدو لي أن قصيدة " ما في البداوة من عيب " ستظل تشكل نصا يحمل دفقا وجدانيا خاصا في ذاكرة الأمير وفي وعيه لأنه نص أستلّ من تحت أنقاض حرفة وجودية تتسم بالإنكباب على الأنا وتتوشح بلغة المرافعة والتحدي مع الإحساس بدونية المصير وفشل المشروع الحضاري». (3)

ب- الشجاعة:

إن ما يفسر لنا ثراء نصوص الأمير عبد القادر بالحماسة والشجاعة هو تشبع روحه بهذه القيم البدوية الأصيلة، باعتباره ابن هذه البيئة، ولعل الارتباط الموجود بين أصل البادية والشجاعة هو ارتباط وثيق ولدته لنا قساوة البيئة البدوية وصعوبة العيش فيها، لأنها تحتم على أبنائها أن يكونوا قلاعاً تحميها في السلم والحرب، ولقد

(1) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 210.

(2) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 51.

(3) - محمد بشير بويجيرة: الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، ص 208.

ارتبطت الشجاعة العربية بأمور عدة تحتم على الفارس العربي أن يتحلى بها لتكتمل عنده صورة شجاعة الإنسان البدوي.

ونجد أن الأمير عبد القادر قد تطرق مثلا إلى التصاق الفروسية بالشجاعة وكذا الدفاع على الجيش أو سكان القبيلة لأنه في نضره واجب تحتمه عليه انتماءاته القبلية كما ارتبطت الشجاعة عنده أيضا بالحروب وأهوالها. والعقلية العربية تفرض عليه أن يخرج دائما من كل حرب يخوضها منتصرا، ولقد برزت لنا شاعرية الأمير عبد القادر في هذا الجانب خاصة وهذا ما سنحاول إبرازه:

- الفروسية:

لقد كان الأمير عبد القادر فارسا بطلا يقضي معظم أيامه ولياليه ممتطيا سهوات الخيل، يلاحق أعداء الوطن لإيهاب القفار وللبراري ولا مكائد العدو، وقد ترجم الأمير عبد القادر هذا الواقع من خلال أشعاره ولعل ما يلفت الانتباه هو ربطه الواضح للحياة التي كان يعيشها وحياة العرب القدماء، لأنها ببساطة حياة بدوية تشترك في جوانب عديدة منها انطلاقا من البيئة الطبيعية والتنقل الدائم وصولا إلى تصوير البدوي الفارس «ويحلو لشاعرنا أن يتمثل صورة الفرسان العرب القدماء وهم يقطعون الصحاري المقفرة إلا من السباع المتوحشة بكل شجاعة وإقدام فتراه على جواده يشق أديم المفازات لا يبدي خوفا ولا جزعا على الرغم مما يكتنفها من أخطار محدقة تظل القطا فيها السبيل ويعوي الذئب من هول ما يرى فيها من الوحشة، إلى أن يصل الأمير إلى مرابع قومه بخيله الظاهرة الهزيلة التي أو شكت على الهلاك، فيرى ألسنة نيران خيامهم تهدي الضال وتدعو السالبة إلى القرى والأمان وتلك أسمى أباب المروءة والخصال العربية التي يعتز بها عبد القادر أيما اعتزاز»⁽¹⁾.

لقد كتب الأمير عبد القادر قصائد طوال يتغنى فيها بفروسيته وشجاعته، معتمدا في ذلك على وصف

لمكان وحياة هي أقرب لحياة البادية.

⁽¹⁾ - عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص 80.

يقول الأمير عبد القادر:

وكم من مغازاتٍ يظلُّ بها القطَا ** قطعت بها والذئبُ من هولها عوى
وقد أصبحت مثل القسي ضوامراً ** وتلك سهامٌ للعدى وقعها شوى
إلى أن بدت نيرانُ أعلامنا لها ** وفي ضوء نيران الكرام لها صوى⁽¹⁾

ففي هذه الأبيات تفاخر واضح للأمير بفروسيته، ووصف مبسط دقيق ومعبر عن وصف حياة البدوي القائمة في البراري والقفار وقد عمد إلى استخدام كلمات ترتبط بهذا الحيز المكاني (البادية)، فقد حاول خلق جو بدو عام على قصيدة من خلال اللغة فعمد إلى استخدام مفردات ترتبط بدرجة أولى بالبيئة البدوية، كما توجد إشارة واضحة إلى تنقله الدائم وترحاله المتواصل وهو ما تقوم عليه الحياة البدوية بقوله أن فرسه أصبحت هزيلة وهذا دليل على مشيها المستمر.

ولعل الأبيات الشعرية التي قالها الأمير عبد القادر تتلاءم مع ما استعمله من ألفاظ فهذه الأبيات تحمل ثراء اللفظ والمعنى وهذا ما ينمي على شعرية الأمير وتوفقه في خلق صورة شاعرية تحمل من الدلالات ما يوافقها في الألفاظ.

ويجب الإشارة إلى نقطة مهمة جدا هي أن الأمير عبد القادر لم يربط الفروسية بامتطاء الفرس فقط أو الخروج في حروب والانتصار فيها بل إنه ربط الفروسية أيضا بالخلق النبيل « وليست الفروسية والبطولة عند العرب وعند شاعرنا عبارة عن وثبة على ظهر جواد ولا ضربة سبق قوية أو شجاعة متهورة. لكن الفروسية الحققة هي أخلاق كريمة وشمائل فاضلة عليا». ⁽²⁾

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 52.

(2) - عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص 83.

-الحروب:

لعل نشأة الأمير عبد القادر في بيئة بدوية كل السبب الرئيسي في تلقنه الفروسية منذ الصغر، وقد أفاده تفرسه في تتبع الصيد وخوض غمار الحروب فهو الفارس البطل الذي كان يهابه الصديق قبل العدو. « ولم يعد فارسا إلى مضارب قومه من فسحه صيد أو نزهة ترويض بل أب إليهم بعد ما خاض معركة دامية يشيب لهولها الوالدان لكثرة ما زهقت فيها من أنفس، وما لقب فيها الأبطال من مشاق وأهوال ترك أعداءه فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية هوت رؤوسهم وتطايرت أمام سيوف عطش تسهى لتشفي ظمأها، فتروى من دماء الغزاة تؤازرها ضربات رماح لا تعرف الكلل والفتور».⁽¹⁾

لقد كان الأمير عبد القادر يروي عطش سيفه من دماء أعدائه فينقض عليهم بلا رحمة ولا شفقة، لا خلاص لهم من يده سوى الحساب فكان الفرسان بخيولهم يتأهبون للحروب، وهذه الصورة مطابقة لما كان سائدا منذ القدم في البوادي القريبة.

«ويفتخر الأمير بحياة البدو التي تعتمد الاستعداد والتأهب الدائمين للحرب فخيول البدو تبقى دائما مسرحة للإغاثة والنجدة ولذلك نال البدو المفاخرة بخيلهم (...) فهؤلاء الفرسان قد وضعوا لبن الشجاعة والفروسية مع جلبب أمهاتهم فعدو يطلبون الجهاد ويفرحون للنزال تراهم يصلون ويجولون يلقون الرعب في قلوب عدوهم».⁽²⁾

لقد تغنى الأمير عبد القادر - كثيرا - بحروبه وانتصاراته التي كان يحققها كما يتغنى بسلاحه وجيشه وخيله الذي كان دائما متأهب للحروب يقول الأمير عبد القادر:

فخيلنا دائما للحرب مسرحة*
** من استغاث بنا بشره بالظفر

(1) - عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه ، ص 81.

(2) - فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص 51.

نحنُ الملوکُ فلا تعدلُ بنا أحدًا * * * وأیُّ عیشٍ لمن قد بات في خفرٍ؟! (1)

في هذه الأبيات الشعرية توضيح صريح بأن الأمير عبد القادر وجيشه لم يكونوا يهابوا شيئاً، بل إنهم كانوا يعدون العدة مسبقاً وتحسباً لأي خطر خارجي قد يهدد أمنهم.

وبقدر ما تحمل هذه الأبيات من معاني ودلالات قوية، استطاع الأمير أن يخرج (المعاني والدلالات) في لغة شعرية قادرة على حمل هذه الدلالات وإخراجها في سياق يتلاءم وطرحها، ما يبرز لنا براعة الشاعر في استخدام اللغة وإخراجها في قالب جديد.

لقد أخرج الأمير عبد القادر نص "ما في البداوة من عيب" في قالب شاعري فاق موضوع وحجم القصيدة ونجد الأمير فيها وفي قصائد أخرى يفصح عن افتخاره بانتمائه للبيئة البدوية، فقد كان هذا ظاهراً جلياً سواء من خلال الموضوع أو اللغة، ولعل ما يبرز تفوق الشاعر هو قدرته على توظيف اللغة مع ما يتلائم مع البيئة البدوية.

(1) - الأمير عبد القادر: ديوان الشاعر، ص 51.

الخاتمة

أخيرا نجد أنفسنا مضطرين- في غير رغبة- أن نضع لهذا البحث نقطة معلنين نهايته، وكيف لبحث يكون

الأمير عبد القادر موضوعه أن يكون له نهاية؟!!

- بحثنا المعنون ب"شعرية البداوة في شعر الأمير عبد القادر" إسهام منا في إبراز العناصر الجمالية للنص

الشعري للأمير عبد القادر، والإحاطة بظاهرة البداوة بالوصف والتحليل وتعقب مصادرها في شعر الأمير، والذي

خلصنا في نهايته إلى نتائج يمكن إدراجها كما يلي:

- يتقارب مفهوم البداوة بين اللغة والاصطلاح، فدلالته في اللغة ترجع إلى السبق الزمني والظهور الأول، أما في

الاصطلاح فيرجع في غالبه إلى نمط وقسم حياة الإنسان البدائي البسيط المعتمدة على عناصر الطبيعة ومهارات

العيش في الصحراء والتنقل، فالبداوة هي أثر البيئة الصحراوية الصعبة على الإنسان الدائم الترحال والتنقل، فهي

إذن نقيض الحضارة في كل جوانبها.

- إن تتبع معطيات البداوة تبرز تزاوجها مع الارتحال والتنقل، حيث ارتبطت البداوة بالصحراء مكانا يعيشونه

يؤثرون ويتأثرون به، فرضت البداوة نمط حياة خاص تحدده طبيعة عيشهم، فسكن البدوي الخيمة وتنقل بالإبل

والخيل وأتقن الصيد كوسيلة للعيش والرعي كمصدر للغذاء، أما البيئة فكان لها الأثر الأكبر في حياة البدوي، فهي

نتاج ثقافته وسلوكه وقيمه.

- نستشعر من خلال دراسة البداوة في شعر الأمير عبد القادر أدبنا القديم، فيفصح عن وجود صورة فنية في

الشعر الجاهلي الذي يظهر حياة البدو القائمة على الترحال كصفة بارزة لها، إضافة إلى خصائص سمعية وبصرية

خاصة بالنظم والفنية على الترتيب.

- يظهر أثر البداوة واضحا على الموضوعات الشعرية المختلفة للأمير عبد القادر من مدح وفخر وغزل والوقوف

على المعجم اللغوي البدوي الذي استخدمه في ديوانه من خلال ثقافته والبيئة المحيطة بالأمير، حيث تدخل هذا

المعجم في بناء جمالية الخطاب الشعري للأمير حيث وظف معجما لغويا خاصا بالبادية يعبر عنها بصدق، حيث

وظفه توظيفاً مميّزاً مما يؤكد ثراء الملكة اللغوية عند الأمير وتعوده على العيش بالبادية واستلهاً مظاهرها وتضمينها شعره في مواضيع محددة ربطها بمفردات معينة.

- وظف الأمير البداوة في قالب شعري يبرز صاحبه أسلوبية وفنية تخلق فرادة الطرح الشعري عنده من خلال البنية الشعرية ذات الصيغة التكرارية على المستوى الصوتي للشعر الذي يحمل في طياته معاني عن الحياة البدوية.

- ركز الأمير على تكرار الأنساق اللغوية والاعتناء بالأوزان والقوافي، مما عزز الجانب الموسيقي لشعر الأمير وأثر بتلقائية على المتلقي.

- جاءت أغلب تراكيب الأمير تفصح عن شعرية التضاد، إضافة إلى الجناس والتكرار مما أنتج إيقاعات محددة تخلق نغماً موسيقياً خاصاً زاد من شعرية الأمير.

- برزت شعرية الحجاج عند الأمير لإبراز تعالي البداوة على حساب الحاضرة، فجاءت قصائده في معظمها تحمل أفضلية العيش في البادية لاسيما قصيدته "ما في البداوة من عيب"، حيث وصف الأمير حيوانات البادية كالضبي والخيل وربطها بالصيد والطرود والفروسية كإقرار وإجابة عن سؤال ضمني بأفضلية البدو على الحضرة وإشادة بقوة وصلابة البدوي.

- لقد أخرج الأمير البادية في صيغة حديثة وفي شاعرية تبرز تفوقه في قول الشعر، فأبعدته عن التصنع والتكسب في إتباعه لأسلافه كمناجاته الليل وخوضه الحروب والصيد والتعبير عن الحياة البدائية التي شكلت فيها قيم الأنفة والشجاعة والكرامة والكرم، أهم مما يملكه البدوي يتميز به عن الحضري، فالأمير عبر عن هذه القيم البدوية التي يعود أصلها إلى عرب الجاهلية الأولى، فيصرح بهذه القيم أحياناً وتأتي على شكل إلماحات أحياناً أخرى.

- اعتمد الأمير صيغ الاستفهام والأنا الجمعي بكثرة في قصائده، هذا ما يجعلنا إلى انتمائه الأصيل وهو أيضاً محاولة منه لتحميل الفضاء البدوي وإبراز عيوب الفضاء الحضري.

- تفتن الأمير لموضوع البوداي والحواضر وما يدرس فيها من إشكاليات وتداعيات اجتماعية، ثقافية واقتصادية ليصبه الأمير في شعره معبرا عن عمق الأفكار وحضور الذات المفكرة، فقد دافع عن البادية ووجودها المادي والمعنوي، مما يبرز ارتباط الأمير بالأرض والتراث العربي بكل أبعاده.

وأسلبة هذه المعاني في شعر الأمير عبد القادر لا يمكننا أن نطلق عليها إلا صفة الشاعرية، هذا بعض ما رأيناه جديرا بالتسجيل والإثبات من نتائج هذا البحث الذي يحتاج إلى بحوث أخرى تعضضه وتدعمه حتى يكون هناك إمام بشخصية عظيمة كشخصية الأمير عبد القادر.

ملحق

شرح المفردات:

مُهَجِّجِي: يقصد بها خالص النفس، بدلت له مهجتي أي بدلت له نفسي وخالص ما أقدر عليه.

المنايا: جمع منية وهي ما يُتَمَنَّى.

الطَّلَلُ: ما شُخِّصَ من آثار الديار.

شَحَابِي: هاج بي الحزن والهم.

الرَّبُور: الكتاب الرُّبُور أي المكتوب بالمزبر وهو القلم.

العَسِيبُ اليماني: يسعف النخل ويروي في عسيب يمان.

عِم صباحاً: من تحيات الجاهلية.

الآكَمَا: جمع أَكْمَة وَأَكْمٌ: تلٌّ صغير أو موضع يكون أكثر ارتفاعاً، يقال تقع داره فوق أَكْمَةٍ مشرفة على البحر.

الفِرْجَاجُ: من الفِرْجَاجِ والفُرْجُجِ من كل شيء هو ما لم ينضج.

المِهْجَانُ: والهَيْجَانُ من الإبل البيض الكرام.

بيوت خف محملها: الخيمة.

العَيْرُ: الحمار أيا كان أهلباً أو وحشياً.

القطَا: طائر معروف بسرعه الفائقة.

مفازات: الصحاري القاحلة.

سفائن البرّ: الإبل.

القفر: الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كالأ.

زفوف: ناقة زفوف سريعة حسنة المشي.

علج: الحمار الوحشي.

شقائق: نبات عشبي من فصيلة الشقيقيات.

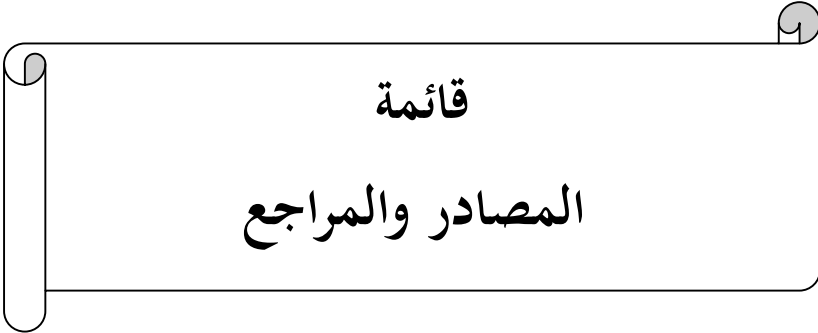
البطاح: أرض منبسطة.

لطح: أي تلوث به.

العقبان: طائر من فصيلة الصقريات.

الرحم: طائر غزير الريش أبيض اللون مبعّع بسواد له منقار طويل.

تَمَلَمَل: تقلّب في فراشه من همّ أو مرض أو ضجر.



قائمة
المصادر والمراجع

أولا المصادر:

1. الأمير عبد القادر الجزائري: ديوان الشاعر: تحقيق: العربي دحو، منشورات ثالة، الجزائر، ط3، 2007م.

ثانيا: المراجع

أ- الكتب العربية

1. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط5، 1995م.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، ج1، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، د ب، ط1، 2004م.
3. أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1975م.
4. إخلاص فخرى عمارة: الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط2، 1421هـ/2001م.
5. الأعشى: ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمد حسين، مكتبة الأدب، د ب، د ط، 1960م.
6. امرئ القيس: ديوان امرئ القيس تحقيق: مصطفى عبد الشافي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1425 هـ /2004م.
7. بديدة الحسيني الجزائري: الأمير عبد القادر حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، دار المعرفة، ط2، الجزائر، 2008م.
8. بسّام العسلي: الأمير عبد القادر الجزائري، دار النفاس، د ب، ط2، 1986م، ص21، 20.
9. بوجمعة بوبعوي وآخرون: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث- الأمير عبد القادر نموذجاً- ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، د ط، 2012م.
10. خالد الزواوي: تطور الصورة في الشعر الجاهلي، مؤسسة حورس الدولية، د ب، ط1، د س.
11. الخطيب التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ/1994م.
12. رحال بوبريك: التراث الصحراوي- التاريخ والذاكرة-، المجلس الوطني لحقوق الإنسان، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2012م.
13. زكريا صيام: دراسة في الشعر الجاهلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1984م.

14. سليمان عشراقي: الأمير عبد القادر : مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري ، دار الغرب للنشر، الجزائر، ط3، 2009م.
15. سليمان عشراقي: الشخصية الجزائرية- الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 2009م.
16. صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، دار غريب، القاهرة، مصر، د ط، 2002م.
17. طرفة بن العبد: ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
18. عباس مصطفى الصالحي: الصيد والطرود في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ/1981م.
19. عبد الإله الصائغ:الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، المركز الثقافي للعرب، بيروت، لبنان،الدار البيضاء،المغرب، ط1، 1997 م.
20. عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، د ط، 2000م.
21. عبد الرضا علي: موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1997.
22. عبد المجيد بيرم: مذكرات الأمير عبد القادر -سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849 تنشر لأول مرة-، تحقيق:محمد الصغير بناقي وآخرون، شركة دار الأمة، الجزائر، ط7، 2010م.
23. عفيف عبد الرحمان: الشعر وأيام الحرب في الشعر الجاهلي، دار الأندلس، د ب، ط1، 1984 م.
24. علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، دار الورق للنشر، العراق، ط1، 1965م.
25. علي بن محمد الصلابي:الأمير عبد القادر الجزائري قائد رباني ومجاهد إسلامي، دار الألوكة، لبنان، د ط د س.
26. عمر محمد عبد الله: أثر البداوة في شعر العباسي،مذكرة لنيل درجة الماجستير، إشراف:سيد أبو إدريس أبو عاقلة، جامعة أم درمان،السودان،د س.
27. عنتر بن شداد: ديوان عنتر، مطبعة الآداب، بيروت، لبنان، ط4، 1893م.

28. فريدة قاسي: الدولة في فكر الأمير عبد القادر، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، د ط، 2012م.

29. فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، وزارة الثقافة، الجزائر، د ط، 2007م.

30. قاسم المومني: شعرية الشعر، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، 2002م.

31. المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د ط، 1403هـ/1983م.

32. محمد السيد محمد علي الوزير: الأمير عبد القادر الجزائري - ثقافته وأثرها في أدبه-، وزارة الثقافة، الجزائر، د ط، 2007م.

33. محمد بشير بويجيرة: الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، منشورات دار الأديب، الجزائر، ط1، 2009.

34. محمد بن سميحة: النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر - مؤثراتها بدايتها مراحلها-، دون دار نشر، الجزائر، د س.

35. مفدى زكريا: إلهادة الجزائر، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 1995م.

36. النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.

37. ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، د ط، 2000م.

ب- الكتب المترجمة:

1. برونو إيتين: عبد القادر الجزائري، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، د ط، 2009م.

2. بديعة الحسني الجزائري: الأمير عبد القادر الجزائر حياته وفكره، ج3، تر: أبو القاسم سعد الله، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1434هـ/2012م.

3. تزييطان تودوروف: الشعرية، تر: شكري المبحوث ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987.

4. شارل هنرى تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، د س.

5. فيكتور شميرلمان: البدو الرحل عبر التاريخ، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2007م.

6. كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج1، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1119هـ.

7. محمد الشريف السحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، تر: محمد يحياتن، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، د ط، 2008م.

ج- المعاجم والقواميس:

1. ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار صادر، القاهرة، مصر، د ط، 1119هـ.
2. الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، ج14، تحقيق: يعقوب عبد النبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، د ط، د س.

3. الرازي، أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، مطبعة الكلية، مصر، ط1، 1329هـ.

4. سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ/ 1985م.

5. شعبان عبد العاطي عطية: المعجم الوسيط، مكتبة الشؤون الدولية، د ب، ط4، 1425هـ/ 2004م.

6. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد: القاموس المحيط: تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005.

د- الرسائل الجامعية:

1. أحمد اسبيتان الشواورة: مظاهر البداوة وصورها في الشعر الجاهلي، رسالة مكملة للحصول على الدكتوراه، إشراف: خليل الرفوع، جامعة مؤتة، 2015م.

2. إبراهيم مصطفى رجب: البنية الصوتية ودلالاتها في شعر عبد الناصر صالح، إشراف: إبراهيم مصطفى رجب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2002م/ 2003م.

3. بن سمينة محمد: التقليد والتجديد في شعر الأمير عبد القادر، رسالة لنيل شهادة دكتوراه، إشراف: بوجلة ندير، جامعة الجزائر، 2007م/ 2008م.

4. عطا الله النوعي: القيم البدوية بين الثبات والتغير-دراسة ميدانية على عينة من شباب مدينة قصر الحيران-، رسالة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: محمد بومخلوف، جامعة الجزائر، 2007م/ 2008م.

5. فايزة إسعد: العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: حجاج الجنيد، جامعة وهران، الجزائر، 2011م/ 2012م.

6. فتح الله مغني: القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، إشراف: عبد الله الرحمن فارسي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 2016م/2007م.
7. مزوز دليلة: سيميائية الحرف العربي قراءة في الشكل والدلالة، جامعة محمد خيضر، بسكرة.
8. وسيلة مرباح: شعر الأمير عبد القادر-الرؤية والأداة، شهادة دكتوراه العلوم، إشراف: حسن كاتب، جامعة قسنطينة1، الجزائر، 2005م/2006م.

هـ- المجلات والدوريات:

1. رباح بوحوش: الشعرية وتحليل الخطاب، الموقف الأدبي، العدد 414، أكتوبر 2005، دمشق.
2. لغربي نسيم: حالة البدو والمهاجرين إلى مدينة توقرت، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، دون نشر، الجزائر، العدد17، 2014م.
3. محمد عمر أبو ضيف محمد: البداوة والحضارة عند المتنبي، مجلة كلية الأدب، جامعة سوهاج، د ب، العدد 25، 2013م.
4. مصطفى الضبع: بداوة المرأة في الرواية العربية، مدينة الواحات، 15-17 مايو 2007م.

و- المحاضرات:

1. محاضرة حركية الإحياء الشعري المغاربي، ص 14. الموقع الإلكتروني: virtuelcamous. univ- Msila. Dz. 2019-05-25 (PDF).
2. مرقومة منصور: المدينة الصحراوية في الجزائر، من نسق البداوة إلى ضرورة الاستقرار، جامعة مستغانم، 2015/11/30.
3. ميشال حجا: البدو والبداوة في كتابات من لبنان، الموقع الإلكتروني: <http://hekmach.org> . 2019/04/17 (PDF).

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
	شكر وتقدير
أ-ج	مقدمة
الفصل الأول: البداوة بين المصطلح والممارسة	
1	I - ضبط المفاهيم
1	أولاً: مفهوم الشعرية
2	ثانياً: مفهوم البداوة
9	II - البداوة بين الثقافة و الحضارة
9	أولاً: من البداوة إلى الحضارة
12	ثانياً: البداوة و الوعي الإجتماعي:
13	1- البداوة كنمط حياة
13	أ- البيئة البدوية
15	ب- الترحال وعدم الاستقرار
16	ج- البساطة
16	د- التجمع القبلي
17	2- البداوة كقيم
18	أ- الكرم
20	ب- الكرامة
21	ج- الجرأة والشجاعة

22	3- البداوة كثقافة
23	أ- العادات والتقاليد
24	ب- اللباس
24	ج- الزينة
25	د- الفواصل الفكرية
26	هـ- الغناء في حياة البدو
29	و- الشعر عند البدو
32	ثالثا: الأمير عبد القادر و البادية
الفصل الثاني: شعرية استحضر البادية في شعر الأمير عبد القادر	
39	I- الأمير عبد القادر و تجربته الشعرية
39	أولاً: الأمير عبد القادر مولده و نشأته
41	ثانياً: الجانب الأدبي عند الأمير
49	II- شعرية البداوة في شعر الأمير:
49	أولاً: شعرية البناء الفني في شعر الأمير:
49	1- شعرية اللغة عند الأمير
51	أ- التضاد
53	ب- التكرار
55	2- شعرية الإيقاع عند الأمير
60	ثانياً: شعرية الأمير في تصوير البادية:

60	1- شعرة الأمر فف تصوفر الأانب المادف
60	أ- البئة البوفة
68	ب- الأفل والصفد
73	ج- شاعرفة اللفل عنء الأمر
75	2- شعرة الأمر فف تصوفر الأانب المعنوف
76	أ- الفخر
82	ب- الشعاة
87	الأءامة
90	ملءق
92	قائمة المصادر والمراع
-	فهرس المحتوفات

ملخص:

لقد شكّلت البداوة المحور الرئيسي الذي تدور حولها دراستنا، من خلال تتبعنا للبداية البيئية والبداوة القيم والثقافة، ولقد كان شعر الأمير عبد القادر نموذجاً يفصح عن تجلي مظاهر البداوة في شعره، فقد تربي الأمير في كنف البداوة متأثراً بها تبرز انتماءه لها، ووظفها في قالب شعري فني يفصح عن شاعرية واضحة من خلال اللغة والإيقاع؛ فكانت لغته لغة تدل على الارتباط بالشعر القديم ومعجمه البدوي وإخراجه في إيقاعات وأنساق لغوية تعتمد التضاد والتكرار وحرف الروي الذي يحمل دلالة المكان وينسجم مع البوح الشعري، إلى أن كَيّف الأمير عنصري اللغة والإيقاع ليعبر عن صور الحياة البدوية في إطارها المادي المرتبط بالبيئة وما يتصل بها من حياة التنقل والترحال والعيش بالخيمة، وأثنى على الجانب المعنوي للبداية المرتبط بالقيم البدوية كالكرم والشجاعة والفخر فالبيئة البدوية إذن كان لها أثرها في تحديد معالم الشخصية البدوية، فقد حاول الأمير أن يبرز تعالي الأنا العربي في حجاجية واضحة بين البداوة والحضارة خالصاً إلى تفضيل البداوة على الحضارة.

الكلمات المفتاحية: البداوة، البداوة، البيئة، الثقافة، القيم، الحضارة، شعرية اللغة، شعرية الإيقاع، شعرية الصورة.